الأزهر

دراسات عن القرآن الكريم

تأليف

الإمام الشيخ: محمد الطاهر بن عاشور

العلامة الأستاذ: محمد فريد وجدى | العلامة الأستاذ: مصطفى صادق الرافعى

جمع وتحقيق أ.د. محمد عمارة

الجزء الثاني





دراسات عن القرآن الكريم

الجزء الثاني

بأقلام:

الإمام الشيخ/ محمد الطاهر بن عاشور
العلامة الأستاذ/ محمد فريد وجدي
العلامة الأستاذ/ مصطفى صادق الرافعي

جمعها وحققها الأستاذ الدكتور
محمد عمارة

هدية ذى الحجة ١٤٣٥ هـ





-٣-

الإمام الشيخ/ محمد الطاهر بن عاشور في إعجاز القرآن

لم أر غرضا تناضلت له سهام الأفهام، ولا غاية تسابقت إليها جياد الهمم فرجعت دونها حسرى، واقتنعت بما بلغته من صبابة نزرا، مثل الخوض في وجوه إعجاز القرآن، فإنه لم يزل شغل أهل البلاغة الشاغل، ومواردها للمعلول والناهل، ومُغْلَى سبائها للنديم والواغل. ولقد سبق أن ألف علم البلاغة مشتملا على نماذج من وجوه إعجازه، والتفرقة بين حقيقته ومجازه. إلا أنه باحث عن كل خصائص الكلام العربي البليغ ليكون معيارا للنقد أو آلة للصنع، ثم ليظهر من جراء ذلك كيف تفوق القرآن على كل كلام بليغ بما توفر فيه من الخصائص التي لا تجتمع في كلام آخر للبلغاء حتى عجز السابقون واللاحقون منهم عن الإتيان بمثله. قال أبو يعقوب السكاكي(١) في كتاب المفتاح: "واعلم أني مهدت لك في هذا العلم قواعد متى بَنَيْتَ عليها أعجب كل شاهد بناؤها، واعترف لك بكمال الحذق في البلاغة أبناؤها- إلى أن قال- : ثم إذا كنت ممن ملك الذوق وتصفحت كلام رب العزة أطلعتك على ما يوردك موارد العزة. وكشفت عن وجه إعجازه القناع" . اهـ

فأما أنا فأردت في هذه المقدمة أن أُلِمَّ بك أيها المتأمل إلمامة

(١) السكاكي، أبو يعقوب، يوسف بن أبي بكر [٥٥٥- ٦٢٦هـ، ١١٦٠- ١٢٢٩م] من علماء العربية والأدب، من آثاره [مفتاح العلوم]، و[رسالة في علم المناظرة].

ليست كخطرة طيف، ولا هي كإقامة المنتجع في المربع حتى يظله الصيف، وإنما هي لمحة ترى منها كيف كان القرآن معجزا، وتتبصر منها نواحي إعجازه، وما أنا بمستقص دلائل الإعجاز في آحاد الآيات والسور، فذلك له مصنفاته، وكل صغير وكبير مستطر. ثم ترى منها بلاغة القرآن ولطائف أدبه التي هي فتح لفنون رائعة من أدب لغة العرب حتى ترى كيف كان هذا القرآن فتح بصائر، وفتح عقول، وفتح ممالك، وفتح أدب غض ارتقى به الأدب العربي مرتقى لم يبلغه أدب أمة من قبل. وكنت أرى الباحثين ممن تقدمني يخلطون هذين الغرضين خلطا، وربما أهملوا معظم الفن الثاني، وربما ألموا به إلماما وخلطوه بقسم الإعجاز، وهو الذي يحق أن يكون البحث فيه من مقدمات علم التفسير، ولعلك تجد في هذه المقدمة أصولا ونكتا أغفلها من تقدموا ممن تكلموا في إعجاز القرآن مثل الباقلاني(٢)، والرماني(٣) وعبد القاهر(٤)،

---

(٢) الباقلاني، أبو بكر، محمد بن الطيب [٣٣٨- ٤٠٣هـ، ٩٥٠-١٠١٣م] قاض من كبار علماء الكلام، انتهت إليه رئاسة الأشاعرة في عصره، ناظر علماء النصرانية في القسطنطينية، أمام ملكها. من آثاره (إعجاز القرآن) و(مناقب الأئمة) و(الملل والنحل) و(كشف أسرار الباطنية).

(٣) الرماني: على بن عيسى بن على بن عبدالله أبو الحسن الرمانى، معتزلى، مفسر، من كبار، النحاة.

(٤)عبد القاهر الجرجاني، أبو بكر [٤٧١هـ- ١٠٧٨م] من أئمة اللغة، وواضع أصول البلاغة، ومن الشعراء. من آثاره (دلائل الإعجاز) و(أسرار البلاغة) و(إعجاز القرآن) و(المغني) و(العمدة).



والخطابي[٥]، وعياض[٦]، والسكاكي، فكونوا منها بالمرصاد، وافلُوا عنها كما يفلى عن النار الرماد. وإن علاقة هذه المقدمة بالتفسير هي أن مفسر القرآن لا يعد تفسيره لمعاني القرآن بالغا حد الكمال في غرضه ما لم يكن مشتملا على بيان دقائق من وجوه البلاغة في آيه المفسرة بمقدار ما تسمو إليه الهمة من تطويل واختصار، فالمفسر بحاجة إلي بيان ما في آي القرآن من طرق الاستعمال العربي وخصائص بلاغته وما فاقت به آي القرآن في ذلك حسبما أشرنا إليه في المقدمة الثانية لئلا يكون المفسر حين يعرض عن ذلك بمنزلة المترجم لا بمنزلة المفسر. فمن أعجب ما نراه خلو معظم التفاسير عن الاهتمام بالوصول إلى هذا الغرض الأسمى إلا عيون التفاسير، فمن مقل مثل معاني القرآن لأبي إسحاق الزجاج[٧]والمحرر الوجيز للشيخ عبد الحق بن عطية الأندلسي[٨]ومن مكثر مثل الكشاف. ولا يعذر في الخلو عن ذلك

---

(٥) الخطابي، أبو سليمان، حمد بن محمد [٣١٩- ٣٨٨هـ، ٩٣١- ٩٩٨م] فقيه ومحدث. من آثاره (بيان إعجاز القرآن) و(معالم السنن) و(غريب الحديث) و(شرح البخاري) و(إصلاح غلط المحدثين).

(٦) القاضي عياض، أبو الفضل، عياض بن موسى [٤٧٦-٥٤٤هـ، ١٠٨٣-١١٤٩م] عالم المغرب، وإمام الحديث في عصره، ومن كبار فقهاء المالكية، من آثاره (الشفا في تعريف حقوق المصطفى) و(شرح صحيح مسلم) و(مشارق الأنوار).

(٧) الزجاج، أبو إسحاق، إبراهيم بن السري بن سهل [٢٤١-٣١١هـ، ٨٥٥-٩٢٣م] بغدادي، عالم بالنحو واللغة. من آثاره (معاني القرآن) و(الأمالي) و(الاشتقاق) و(خلق الإنسان).

(٨) ابن عطية الأندلسي، أبو محمد، عبد الحق بن غالب بن عطية المحاربي [٤٨١-٥٤٢هـ، ١٠٨٨-١١٤٨م] فقيه أندلسي، ومن مفسري القرآن الكريم، من آثاره، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، في عشرة مجلدات.

إلا التفاسير التي نحت ناحية خاصة من معاني القرآن مثل أحكام القرآن، على أن بعض أهل الهمم العلية من أصحاب هذه التفاسير لم يهمل هذا العِلْقَ النفيس كما يصف بعض العلماء كتاب أحكام القرآن لإسماعيل بن إسحاق بن حماد المالكي البغدادي(٩) وكما نراه في مواضع من أحكام القرآن لأبي بكر بن العربي(١٠) ثم إن العناية بما نحن بصدده من بيان وجوه إعجاز القرآن إنما نبعت من مختزن أصل كبير من أصول الإسلام وهو كونه المعجزة الكبرى للنبي ﷺ وكونه المعجزة الباقية وهو المعجزة التي تحدى بها الرسول معانديه تحديا صريحا. قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾

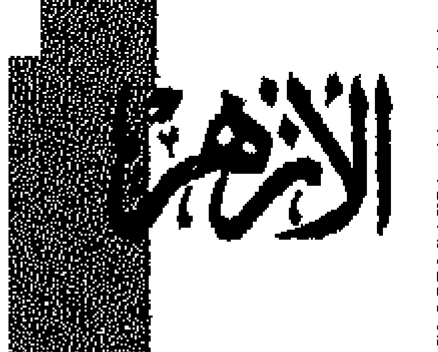
(العنكبوت ٥٠ - ٥١)

ولقد تصدى للاستدلال على هذا أبو بكر الباقلاني في كتاب له سماه أو سُمِّي "إعجاز القرآن" وأطال، وخلاصة القول فيه أن رسالة

---

(٩) إسماعيل بن إسحاق بن حماد، الجهضمي [٢٠٠-٢٨٢هـ، ٨١٥-٨٩٦م] فقيه مالكي، ولي قضاء بغداد والمدائن، والنهروانات. من آثاره (أحكام القرآن) و(الاحتجاج بالقرآن) و(الموطأ) (وشواهد الموطأ) في عشرة مجلدات، و(المبسوط) و(الرد على أبي حنيفة) و(الرد على الشافعي) و(الأصول) و(السنن).

(١٠) أبو بكر بن العربي، محمد بن عبد الله [٤٦٨-٥٤٣هـ، ١٠٧٦-١١٤٨م] من كبار علماء المالكية بالأندلس، موسوعي. له مشاركات متميزة في الفقه والأصول والحديث والأدب والنحو وعلوم القرآن. من آثاره [أحكام القرآن]، و[قانون التأويل]، و[العواصم من القواصم]، و[الإنصاف في مسائل الخلاف] (في عشرين مجلدا).



نبينا عليه الصلاة والسلام بنيت على معجزة القرآن، وإن كان قد أُيِّد بعد ذلك بمعجزات كثيرة إلا أن تلك المعجزات قامت في أوقات وأحوال ومع ناس خاصة ونقل بعضها متواترا وبعضها نقل نقلا خاصا، فأما القرآن فهو معجزة عامة، ولزوم الحجة به باق من أول ورودها إلى يوم القيامة، وإن كان يعلم وجه إعجازه من عجز أهل العصر الأول عن الإتيان بمثله فيغني ذلك عن نظر مجدد، فكذلك عجز أهل كل عصر من العصور التالية عن النظر في حال عجز أهل العصر الأول، ودليل ذلك متواترٌ من نص القرآن في عدة آيات تتحدى العرب بأن يأتوا بسورة مثله، وبعشر سور مثله مما هو معلوم، ناهيك أن القرآن نادى بأنه معجز لهم، نحو قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ (البقرة:٢٣-٢٤)

فإنه سهَّل وسجَّل: سهل عليهم أن يأتوا بمثل سورة من سوره، وسجل عليهم أنهم لا يفعلون ذلك أبدا، فكان كما سجل فالتحدي متواتر وعجز المتحدَّيْنَ أيضا متواترٌ بشهادة التاريخ إذ طالت مدتهم في الكفر ولم يقيموا الدليل على أنهم غير عاجزين وما استطاعوا الإتيان بسورة مثله ثم عدلوا إلى المقاومة بالقوة قال الله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ﴾

وقال: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ

إن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (يونس : ٣٨)

وقال : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ ﴾ (هود : ١٣-١٤)

فعجْزُ جميع المتحدَّيْن عن الإتيان بمثل القرآن أمر متواتر بتواتر هذه الآيـات بينهم وسكوتهم عن المعارضة مع توافر دعاويهم عليها . وقد اختلف العلماء في تعليل عجزهم عن ذلك فذهبت طائفة قليلة إلى تعليله بأن الله صرفهم عن معارضة القرآن فسلبهم المقدرة أو سلبهم الداعي ، لتقوم الحجة عليهم بمرأى ومسمع من جميع العرب . ويعرف هذا القول بالصَّرْفَة كما في المواقف للعضد(١١) والمقاصد للتفتزاني(١٢) (ولعلها بفتح الصاد وسكون الراء وهي مرة من الصرفة وصيغ بصيغة المرة للإشارة إلى أنها صرف خاص فصارت كالعلم بالغلبة) ولم ينسبوا هذا القول إلا إلى الأشعري(١٣) فيما حكاه أبو الفضل عياض في

(١١) العضد ، عضد الدين الإيجي ، أبو الفضل ، عبد الرحمن بن أحمد [٧٥٦ هـ ، ١٣٥٥م] ، عالم بالأصول والعربية والمعاني والبيان والبديع . من آثاره : [المدخل في علم المعاني والبيان والبديع] ، و[المواقف] ، و[العقائد العضدية] ، و[الرسالة العضدية] ، و[أشرف التواريخ] ، و[شرح مختصر ابن الحاجب] .

(١٢) التفتزاني ، سعد الدين ، مسعود بْن عمر [٧١٢- ٧٩٣هـ ، ١٣١٢- ١٣٩٠م] ، من علماء الفقه والمنطق والبيان والنحو والتفسير والكلام . من آثاره : [مقاصد الطالبين] ، و[شرح العقائد النسفية] ، و[تهذيب المنطق] ، و[التلويح إلى كشف حقائق التنقيح] ، و[شرح الشمسية] ، و[حاشية الكشاف] ، و[شرح الأربعين النووية] .

(١٣) الأشعري ، أبو الحسن ، علي بن إسماعيل [٢٦٠- ٣٢٤هـ ، ٨٧٤- ٩٣٦م] .=



الشفاء وإلى النظَّام(١٤) والشريف المرتضى(١٥) وأبي إسحاق الإسفرائيني(١٦) فيما حكاه عنهم عضد الدين في المواقف وهو قول ابن حزم(١٧) صرح به في كتاب الفِصل (ص٧ جزء٣) (ص١٨٤ جزء٢) وقد عزاه صاحب المقاصد في شرحه إلى كثير من المعتزلة. وأما الذي عليه جمهرة أهل العلم والتحقيق واقتصر

= من أئمة المتكلمين المجتهدين، ومؤسس مذهب الأشاعرة. كان معتزليا ثم خرج على المعتزلة. بلغت مصنفاته ثلاثمائة كتاب، منها: [مقالات الإسلاميين]، و[الإبانة عن أصول الديانة]، و[الرد على المجسمة]، و[مقالات الملحدين]، و[الرد على ابن الراوندي]، و[الأسماء والأحكام]، و[رسالة في الإيمان].

(١٤) النَّظام، أبو إسحاق، إبراهيم بن سيار [٢٣١هـ، ٨٤٥م]. من أئمة المعتزلة، متبحر في علوم الفلسفة، وإليه تنسب النظامية، إحدى فرق المعتزلة.

(١٥) الشريف المرتضى، أبو القاسم، علي بن الحسين بن موسى [٣٥٥- ٤٣٦هـ، ٩٦٦- ١٠٤٤م] شيعي، من أئمة الكلام والأدب والشعر، ونقيب الطالبيين في عصره. من آثاره: [أمالي المرتضى]، و[إنقاذ البشر من الجبر والقدر]، و[تنزيه الأنبياء]، و[الشافي في الإمامة].

(١٦) الإسفرائيني، أبو إسحاق، إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مهران [٤١٨هـ، ١٠٢٧م]. عالم بالفقه والأصول، وثقة في رواية الحديث، كان يلقب بركن الدين، من آثاره: [الجامع] في أصول الدين، في خمسة مجلدات، و[رسالة] في أصول الفقه. وله مناظرات مع المعتزلة.

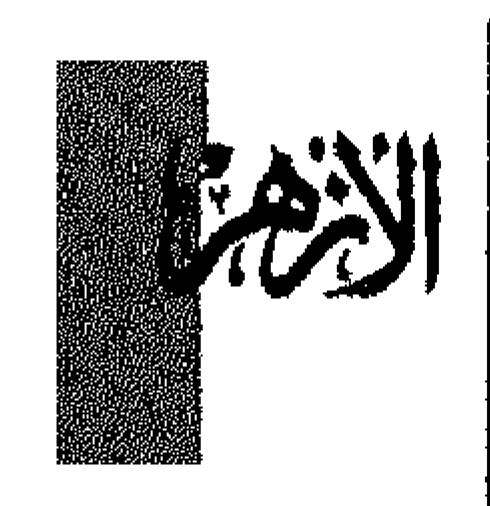
(١٧) ابن حزم الأندلسي، أبو محمد، علي بن أحمد بن سعيد بن حزم [٣٨٤- ٤٥٦هـ، ٩٩٤-١٠٦٤م]. عالم موسوعي وفيلسوف ومتكلم، وأبرز فقهاء المذهب الظاهري، من آثاره: [المحلى]، و[الملل والنحل]، و[الالتباس فيما بين أصحاب الظاهر وأصحاب القياس].

عليه أيمة الأشعرية وإمام الحرمين[١٨] وعليه الجاحظ[١٩] وأهل العربية كما في المواقف، فالتعليل لعجز المتحدِّين به بأنه بلوغ القرآن في درجات البلاغة والفصاحة مبلغا تعجز قدرة بلغاء العرب عن الإتيان بمثله، وهو الذي نعتمده ونسير عليه في هذه المقدمة العاشرة. وقد بدا لي دليل قوي على هذا وهو بقاء الآيات التي نسخ حكمها وبقيت متلوةً من القرآن ومكتوبة في المصاحف فإنها لما نسخ حكمها لم يبق وجه لبقاء تلاوتها وكتبها في المصاحف إلا ما في مقدار مجموعها من البلاغة بحيث يلتئم منها مقدار ثلاث آيات متحدى بالإتيان بمثلها مثال ذلك آية الوصية في سورة العقود. وإنما وقع التحدي بسورة، أي وإن كانت قصيرة، دون أن يتحداهم بعدد من الآيات لأن من أفانين البلاغة ما مرجعه إلى مجموع نظم الكلام وصوغه بسبب الغرض الذي سيق فيه من فواتح الكلام وخواتيمه، وانتقال الأغراض، والرجوع إلي الغرض، وفنون الفصل، والإيجاز والإطناب، والاستطراد والاعتراض، وقد

---

(١٨) إمام الحرمين، أبو المعالي، عبد الملك بن عبد الله الجويني [٤١٩- ٤٧٨هـ، ١٠٢٨-١٠٨٥م]. من أصحاب الشافعي. كان يحضر دروسه في المدرسة النظامية أكابر العلماء، من آثاره: [غياث الأمم في التياس الظلَم]، و[العقيدة النظامية في الأركان الإسلامية]، و[البرهان]، و[الإرشاد]، و[الشامل]، و[مغيث الخلق].

(١٩) الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر [١٦٣- ٢٥٥هـ، ٧٨٠- ٨٦٩م] عالم موسوعي، من أئمة الأدباء والفلاسفة، ورأس فرقة الجاحظية من المعتزلة. من آثاره: [الحيوان]، و[البخلاء]، و[البيان والتبيين]، و[مجموع الرسائل]،و[الحنين إلى الأوطان]، و[مسائل القرآن]، و[فضيلة المعتزلة]، و[الاستبداد والمشاورة في الحرب].



جعل شرف الدين الطيبي[٢٠] هذا هو الوجه لإيقاع التحدي بسورة دون أن يجعل بعدد من الآيات. وإذ قد كان تفصيل وجوه الإعجاز لا يحصره المتأمل كان علينا أن نضبط معاقدها التي هي ملاكها، فنرى ملاك وجوه الإعجاز راجعا إلى ثلاث جهات:

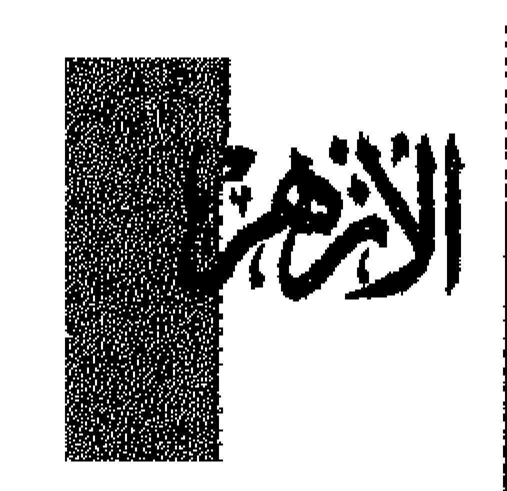
الجهة الأولى: بلوغه الغاية القصوى مما يمكن أن يبلغه الكلام العربي البليغ من حصول كيفيات في نظمه مفيدة معاني دقيقة ونكتا من أغراض الخاصة من بلغاء العرب مما لا يفيده أصل وضع اللغة، بحيث يكثر فيه ذلك كثرة لا يدانيها شيء من كلام البلغاء من شعرائهم وخطبائهم.

الجهة الثانية: ما أبدعه القرآن من أفانين التصرف في نظم الكلام مما لم يكن معهودا في أساليب العرب، ولكنه غير خارج عما تسمح به اللغة.

الجهة الثالثة: ما أودع فيه من المعاني الحكمية والإشارات إلى الحقائق العقلية والعلمية مما لم تبلغ إليه عقول البشر في عصر نزول القرآن وفي عصور بعده متفاوتة، وهذه الجهة أغفلها المتكلمون في إعجاز القرآن من علمائنا مثل أبي بكر الباقلاني والقاضي عياض. وقد عد كثير من العلماء من وجوه إعجاز القرآن ما يعد جهة رابعة هي ما انطوى عليه من الأخبار عن المغيبات مما دل على أنه منزل من علام الغيوب، وقد يدخل

(٢٠) اسمه على الأصح الحسين، وقيل الحسن بن محمد الطيبي بكسر الطاء وسكون الياء، الشافعي المتوفي سنة ٧٤٣هـ.

في هذه الجهة ما عده عياض في الشفاء وجها رابعا من وجوه إعجاز القرآن وهو ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة مما كان لا يعلم منه القصة الواحدة إلا الفذ من أحبار أهل الكتاب، فهذا معجز للعرب الأميين خاصة وليس معجزا لأهل الكتاب؛ وخاصٌّ ثبوت إعجازه بأهل الإنصاف من الناظرين في نشأة الرسول ﷺ وأحواله، وليس معجزا للمكابرين فقد قالوا إنما يعلِّمه بشر. فإعجاز القرآن من الجهتين الأولى والثانية متوجهٌ إلى العرب، إذ هو معجز لفصحائهم وخطبائهم وشعرائهم مباشرة، ومعجز لعامتهم بواسطة إدراكهم أن عجز مقارعيه عن معارضته مع توفر الدواعي عليه هو برهان ساطع على أنه تجاوز طاقة جميعهم. ثم هو بذلك دليل على صدق المنزل عليه لدى بقية البشر الذين بلغ إليهم صدى عجز العرب بلوغا لا يُستطاع إنكاره لمعاصريه بتواتر الأخبار، ولمن جاء بعدهم بشواهد التاريخ. فإعجازه للعرب الحاضرين دليل تفصيلي، وإعجازه لغيرهم دليل إجمالي. ثم قد يشارك خاصة العرب في إدراك إعجازه كل من تعلم لغتهم ومارس بليغ كلامهم وآدابهم من أئمة البلاغة العربية في مختلف العصور، وهذا معنى قول السكاكي في المفتاح مخاطبا للناظر في كتابه "متوسلا بذلك (أي بمعرفة الخصائص البلاغية التي هو بصدد الكلام عليها) إلى أن تتأنق في وجه الإعجاز في التنزيل منتقلا مما أجمله عجز المتحدين به عندك إلى التفصيل" والقرآن معجز من الجهة الثالثة للبشر قاطبة إعجازا مستمرا على ممر العصور، وهذا من جملة ما شمله قول أئمة الدين: إن القرآن هو المعجزة المستمرة على تعاقب السنين، لأنه قد يدرك إعجازه العقلاء من



غير الأمة العربية بواسطة ترجمة معانيه التشريعية والحكمية والعلمية والأخلاقية، وهو دليل تفصيلي لأهل تلك المعاني وإجمالي لمن تبلغه شهادتهم بذلك. وهو من الجهة الرابعة- عند الذين اعتبروها زائدة على الجهات الثلاث- معجز لأهل عصر نزوله إعجازا تفصيليا، ومعجز لمن يجيء بعدهم ممن يبلغه ذلك بسبب تواتر نقل القرآن، وتعيُّن صرف الآيات المشتملة على هذا الإخبار إلى ما أريد منها. هذا ملاك الإعجاز بحسب ما انتهى إليه استقراؤنا إجمالا، ولنأخذ في شيء من تفصيل ذلك وتمثيله.

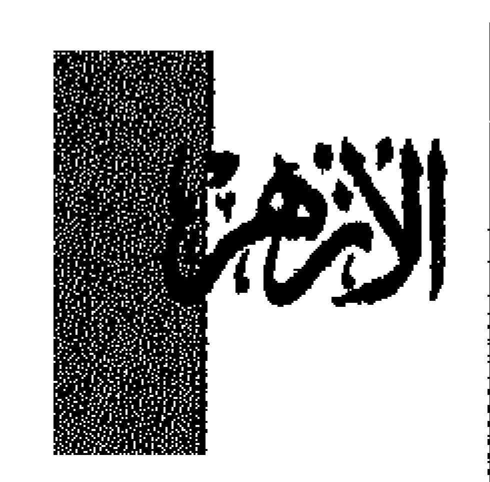
فأما الجهة الأولى فمرجعها إلى ما يسمى بالطرف الأعلى من البلاغة والفصاحة وهو المصطلح على تسميته حد الإعجاز فلقد كان منتهى التنافس عند العرب بمقدار التفوق في البلاغة والفصاحة، وقد وصف أئمة البلاغة والأدب هذين الأمرين بما دُوِّن له علما المعاني والبيان، وتصدوا في خلال ذلك للموازنة بين ما ورد في القرآن من ضروب البلاغة وبين أبلغ ما حفظ عن العرب من ذلك مما عد في أقصى درجاتها. وقد تصدى أمثال أبي بكر الباقلاني وأبي هلال العسكري(٢١) وعبد القاهر والسكاكي وابن الأثير(٢٢)، إلى الموازنة بين ما ورد في القرآن وبين ما ورد

(٢١) أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله [٣٩٥هـ ١٠٠٥م]. عالم بالأدب وشاعر. له آثار كثيرة، منها: [جمهرة الأمثال]، و[معجم] في اللغة، و[كتاب الصناعتين: النظم والنثر]، و[شرح الحماسة]، و[المحاسن] في تفسير القرآن- خمسة مجلدات، و[الفروق]- في اللغة-.

(٢٢) ابن الأثير، أبو السعادات، مجد الدين المبارك بن محمد [٥٤٤- ٦٠٦هـ، ١١٥٠-١٢١٠م]. محدث ولغوي وأصولي. من آثاره: [النهاية]، و[جامع الأصول]، و[الإنصاف في الجمع بين الكشف والكشاف] -في التفسير-.

في بليغ كلام العرب من بعض فنون البلاغة بما فيه مقنعٌ للمتأمل ومثلٌ للمتمثل، وليس من حظ الواصف إعجاز القرآن وصفا إجماليا كصنعنا ههنا أن يصف هذه الجهة وصفا مفصلا لكثرة أفانينها، فحسبنا أن نحيل في تحصيل كلياتها وقواعدها على الكتب المجعولة لذلك مثل دلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة، والقسم الثالث فما بعده من المفتاح، ونحو ذلك، وأن نحيل في تفاصيلها الواصفة لإعجاز آي القرآن على التفاسير المؤلفة في ذلك وعمدتها كتاب الكشاف للعلامة الزمخشري(٢٣)، وما سنستنبطه ونبتكره في تفسيرنا هذا إن شاء الله، غير أني ذاكر هنا أصولا لنواحي إعجازه من هذه الجهة وبخاصة ما لم يذكره الأئمة أو أجملوا في ذكره. وحسبنا هنا الدليل الإجمالي وهو أن الله تعالى تحدى بلغاءهم أن يأتوا بسورة من مثله فلم يتعرض واحد إلى معارضته، اعترافا بالحق وَرَبْئًا بأنفسهم عن التعريض بالنفس إلى الافتضاح، مع أنهم أهل القدرة في أفانين الكلام نظما ونثرا وترغيبا وزجرا قد خُصُّوا من بين الأمم بقوة الذهن وشدة الحافظة وفصاحة اللسان وتبيان المعاني، فلا يستصعب عليهم سابق من المعاني، ولا يجمح بهم عسير من المقامات. قال عياض في الشفاء : " فلم يزل يقرعهم النبي - ﷺ - أشد التقريع ويوبخهم غاية التوبيخ ويُسَفِّه أحلامهم ويحط أعلامهم وهم في

(٢٣) الزمخشري، جار الله، أبو القاسم، محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمي [٤٦٧-٥٣٨هـ، ١٠٧٥-١١٤٤م]. من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة والأدب. معتزلي المذهب، من آثاره: [الكشاف] في تفسير القرآن الكريم، و[أساس البلاغة]، و[مقدمة الأدب] في اللغة، و[الفائق] في غريب الحديث، و[نكت الأعراب في غريب الإعراب]، و[ربيع الأبرار] في الأدب.



كل هذا ناكصون عن معارضته محجمون عن مماثلته، يخادعون أنفسهم بالتكذيب والإغراء بالافتراء، وقولهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ (المدثر: ٢٤) و﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ (القمر: ٢) و﴿إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ (الفرقان: ٤) و﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ (الأنعام: ٢٥). وقد قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ (البقرة: ٢٤) فما فعلوا ولا قدروا ومن تعاطى ذلك من سخفائهم كمسيلمة(٢٤) كشف عواره لجميعهم ولما سمع الوليد بن المغيرة(٢٥) قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ (النحل: ٩٠) قال: "والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أسفله لمغدق وإن أعلاه لمثمر وما هو بكلام بشر" وذكر أبو عبيدة(٢٦) أن أعرابيا سمع رجلا يقرأ ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ (الحجر: ٩٤) فسجد وقال: سجدت لفصاحته وكان موضع التأثير في هذه الجملة هو كلمة اصدع في إبانتها عن الدعوة والجهر بها والشجاعة فيها، وكلمة ﴿بِمَا تُؤْمَرُ﴾ في إيجازها وجمعها. وسمع آخر رجلا يقرأ ﴿فَلَمَّا

---

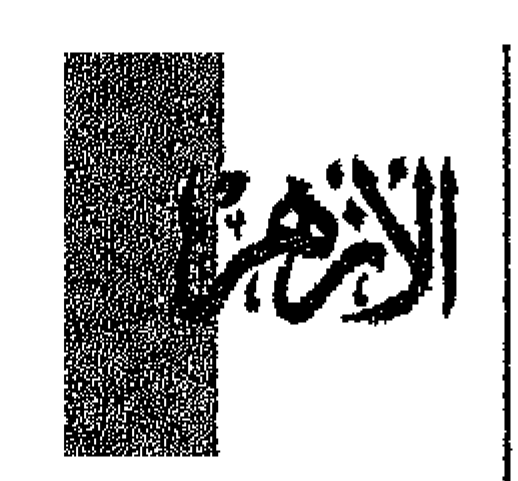
(٢٤) مسيلمة الكذاب، مسيلمة بن ثمامة بن كبير بن حبيب الحنفي [١٢هـ، ٦٣٣م]. متنبئ بني حنيفة باليمامة في نجد. قتل في حروب الردة بمعركة اليمامة، التي قادها خالد بن الوليد- على عهد أبي بكر الصديق-.

(٢٥) الوليد بن المغيرة، أبو عبد شمس، الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم [٩٥ق.هـ- ١هـ، ٥٣٠-٦٢٢م]. من زعماء قريش، وقاضي العرب في الجاهلية، ومن زنادقتها، ويلقب بالعدل، أدرك الإسلام وعاداه، لكنه شهد بأن القرآن ليس كلام بشر. وهو والد سيف الإسلام خالد بن الوليد.

(٢٦) أبو عبيدة النحوي، مَعمَر بن المثنى [١١٠- ٢٠٩هـ، ٧٢٨-٨٢٤م]. من أئمة العلم بالأدب واللغة وحفاظ الحديث، له قرابة مائتي مؤلف، منها: [مجاز القرآن]، و[معاني القرآن]، و[إعراب القرآن]، و[نقائض جرير والفرزدق]، و[مآثر العرب]، و[المثالب]، و[أيام العرب]، و[ما تلحن فيه العامة]، و[فتوح أرمينية]، و[طبقات الشعراء].

ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا﴾(يوسف: ٨٠) فقال: أشهد أن مخلوقا لا يقدر على مثل هذا الكلام. وكون النبي ﷺ تحدى به وأن العرب عجزوا عن معارضته مما علم بالضرورة إجمالا وتصدى أهل علم البلاغة لتفصيله، قال السكاكي في المفتاح: "واعلم أن شأن الإعجاز عجيب يدرك ولا يمكن وصفه، كاستقامة الوزن تدرك ولا يمكن وصفها؛ أو كالملاحة. ومدرك الإعجاز عندي هو الذوق ليس إلا. وطريق اكتساب الذوق طول خدمة هذين العلمين (المعاني والبيان). نعم للبلاغة وجوه متلثمة ربما تيسرت إماطة اللثام عنها لتجلى عليك، أما نفس وجه الإعجاز فلا". اهـ

قال التفتزاني: "يعني أن كل ما ندركه بعقولنا ففي غالب الأمر نتمكن من التعبير عنه، والإعجاز ليس كذلك لأنا نعلم قطعا من كلام الله أنه بحيث لا تمكن للبشر معارضته والإتيان بمثله ولا يماثله شيء من كلام فصحاء العرب مع أن كلماته كلمات كلامهم، وكذا هيئات تراكيبه، كما أنا نجد كلاما نعلم قطعا أنه مستقيم الوزن دون آخر، وكما أنا ندرك من أحد كون كل عضو منه كما ينبغي وآخر كذلك أو دون ذلك، لكن فيه شيء نسميه الملاحة ولا نعرف ما هو، وليس مدرك الإعجاز عند المصنف سوى الذوق وهو قوة إدراكية لها اختصاص بإدراك لطائف الكلام ووجوه محاسنه الخفية، فإن كان حاصلا بالفطرة فذاك وإن أريد اكتسابه فلا طريق إليه سوي الاعتناء بعلمي المعاني والبيان وطول ممارستهما والاشتغال بهما وإن جمع بين الذوق الفطري وطول خدمة العلمين فلا غاية وراءه، فوجه الإعجاز أمر من جنس البلاغة والفصاحة لا كما ذهب إليه النَّظّام وجمع من المعتزلة أن



إعجازه بالصَّرفة بمعنى أن الله صرف العرب عن معارضته وسلب قدرتهم عليها، ولا كما يذهب إليه جماعة من أن إعجازه بمخالفة أسلوبه لأساليب كلامهم من الأشعار والخطب والرسائل لا سيما في المقاطع مثل يؤمنون وينفقون ويعلمون (قال السيد: لا سيما في مطالع السور ومقاطع الآي) أو بسلامته من التناقض (قال السيد: مع طوله جدا) أو باشتماله على الإخبار بالمغيبات والكل فاسد. اهـ

وقال السيد الجرجاني[٢٧]: فهذه أقوال خمسة في وجه الإعجاز لا سادس لها. وقال السيد: أراد المصنف أن الإعجاز نفسه وإن لم يمكن وصفه وكشفه بحيث يدرك به كل الأمور المؤدية إلى كون الكلام معجزا أعني وجوه البلاغة قد تحتجب فربما تيسر كشفها ليتقوى بذلك ذوق البليغ على مشاهدة الإعجاز. يريد السيد بهذا الكلام إبطال التدافع بين قول صاحب المفتاح: يُدرك ولا يمكن وصفه، إذ نفى الإمكان، وبين قوله: نعم للبلاغة وجوه متلثمة ربما تيسرت إماطة اللثام عنها، فأثبت تيسر وصف وجوه الإعجاز، بأن الإعجاز نفسه لا يمكن كشف القناع عنه، وأما وجوه البلاغة فيمكن كشف القناع عنها. واعلم أنه لا شك في أن خصوصيات الكلام البليغ ودقائقه مرادة لله تعالى في كون القرآن معجزا وملحوظة للمتحدَّين به على مقدار ما يبلغ إليه بيان المبين. وإن

(٢٧) الجرجاني، الشريف الجرجاني، علي بن محمد [٧٤٠- ٨١٦هـ، ١٣٤٠-١٤١٣م] فيلسوف. من كبار العلماء بالعربية. من آثاره: [التعريفات] و[شرح مواقف الإيجي] و[مقاليد العلوم] و[تحقيق الكليات] و[تقسيم العلوم] و[رسالة في فن أصول الحديث].

إشارات كثيرة في القرآن تلفت الأذهان لذلك، ويحضرني الآن من ذلك أمور: أحدها ما رواه مسلم والأربعة عن أبي هريرة قال رسول الله - ﷺ - :"قال الله تغالى: قسمت الصلاة (أيْ سورة الفاتحة) بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل. فإذا قال العبد: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ :قال الله تعالى: حمدني عبدي. وإذا قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، قال الله تعالى: "أثنى علي عبدي" وإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، قال: مجدني عبدي. وقال مرة: فوض إلي عبدي) فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ (٦) صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل. ففي هذا الحديث تنبيه على ما في نظم فاتحة الكتاب من خصوصية التقسيم إذ قسم الفاتحة ثلاثة أقسام، وحسنُ التقسيم من المحسنات البديعية مع ما تضمنه ذلك التقسيم من محسن التخلص في قوله: فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، قال: "هذا بيني وبين عبدي" إذ كان ذلك مزيجا من القسمين الذي قبله والذي بعده. وفي القرآن مراعاة التجنيس في غير ما آية، والتجنيس من المحسنات، ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ يَنۡهَوۡنَ عَنۡهُ وَيَنۡـَٔوۡنَ﴾(الأنعام:٢٦). وفيه التنبيه على محسن المطابقة كقوله: ﴿فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾(الحج:٤). والتنبيه على ما فيه من تمثيل كقوله تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾(العنكبوت:٤٣) وقوله: ﴿وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾(إبراهيم:٢٥) ولذا نحن نحاول



تفصيل شيء مما أحاط به علمنا من وجوه الإعجاز نرى من أفانين الكلام الالتفات، وهو نقل الكلام من أحد طرق التكلم أو الخطاب أو الغيبة إلى طريق آخر منها. وهو بمجرده معدود من الفصاحة، وسماه ابن جني شجاعة العربية لأن ذلك التغيير يجدد نشاط السامع فإذا انضم إليه اعتبار لطيف يناسب الانتقال إلى ما انتقل إليه صار من أفانين البلاغة وكان معدودا عند بلغاء العرب من النفائس، وقد جاء منه في القرآن ما لا يحصى كثرة مع دقة المناسبة في الانتقال. وكان للتشبيه والاستعارة عند القوم المكان القصي والقدر العلي في باب البلاغة وبه فاق امرؤ القيس ونُبهت سمعته، وقد جاء في القرآن من التشبيه والاستعارة ما أعجز العرب كقوله: ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ (مريم: ٤) وقوله: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ (الإسراء: ٢٤) وقوله: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ (يس: ٣٧) وقوله تعالى: ﴿ٱبْلَعِى مَآءَكِ﴾ (هود: ٤٤) وقوله: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ (البقرة: ١٣٨) إلى غير ذلك من وجوه البديع. ورأيت من محاسن التشبيه عندهم كمال الشبه، ورأيت وسيلة ذلك الاحتراس وأحسنه ما وقع في القرآن كقوله تعالى: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ (محمد: ١٥) احتراس عن كراهة الطعام ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ احتراس عن أن تتخلله أقذاء من بقايا نحله. وانظر التمثيلية في قوله تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ (البقرة: ٢٦٦) ففيه إتمام جهات كمال تحسين التشبيه لإظهار أن الحسرة على تلفها أشد. وكذا قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾ (النور: ٣٥) إلى

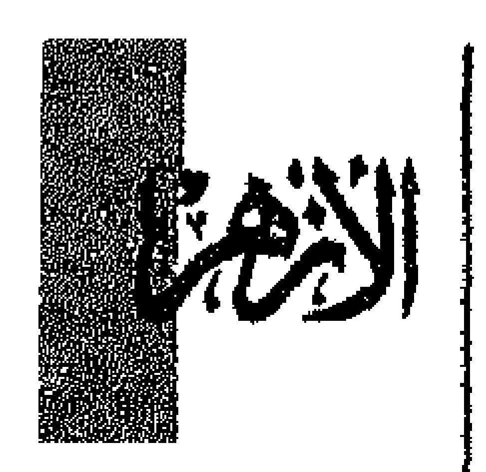
قوله: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ﴾ فقد ذكر من الصفات، والأحوال ما فيه مزيد وضوح المقصود من شدة الضياء، وما فيه تحسين المشبه وتزيينه بتحسين شبهه وأين من الآيتين قول كعب؟(٢٨)

شجت بذي شبم من ماء محنية صاف بأبطح أضحى وهو مشمول

تنفي الرياح القذى عنه وأفرطه من صوب سارية بيض يعاليل

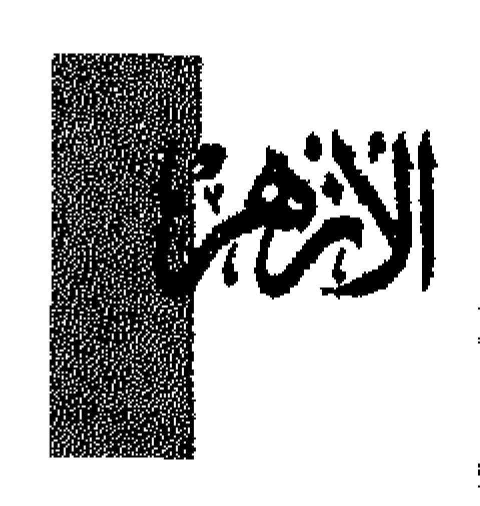
إن نظم القرآن مبني على وفرة الإفادة، وتعدد الدلالة فجمل القرآن لها دلالتها الوضعية التركيبية التي يشاركها فيها الكلام العربي كله، ولها دلالتها البلاغية التي يشاركها في مجملها كلام البلغاء ولا يصل شيء من كلامهم إلى مبلغ بلاغتها ولها دلالتها المطوية وهي دلالة ما يذكر على ما يقدر اعتمادا على القرينة، وهذه الدلالة قليلة في كلام البلغاء وكثرة في القرآن مثل تقدير القول وتقدير الموصوف وتقدير الصفة. ولها دلالة مواقع جمله بحسب ما قبلها وما بعدها ككون الجملة في موقع العلة لكلام قبلها، أو في موقع الاستدراك أو في موقع جواب سؤال، أو في موقع تعريض أو نحوه وهذه الدلالة لا تتأتى في كلام العرب لقصر أغراضه في قصائدهم وخطبهم بخلاف القرآن، فإنه لما كان من قبيل التذكير والتلاوة سمحت أغراضه بالإطالة، وبتلك الإطالة تأتي تعدد مواقع الجمل والأغراض مثال ذلك قوله: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا

(٢٨) كعب بن زهير- أبو المضرب- كعب بن زهير بن أبي سلمى [٢٦هـ ٦٤٥م] من مشاهير شعراء الجاهلية. أدرك الإسلام، ووفد على النبي- ﷺ- وأنشده لاميته فخلع عليه النبي ﷺ بردته. له [ديوان شعر].



يُظْلَمُونَ ﴾ (الجاثية: ٢٢) بعد قوله: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (الجاثية: ٢١) فإن قوله: ﴿ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ إلى آخره مفيد بتراكيبه فوائد من التعليم والتذكير، وهو لوقوعه عقب قوله: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ واقع موقع الدليل على أنه لا يستوي من عمل السيئات مع من عمل الصالحات في نعيم الآخرة. وإن للتقديم والتأخير في وضع الجمل وأجزائها في القرآن دقائق عجيبة كثيرة لا يحاط بها، وسننبه على ما يلوح منها في مواضعه إن شاء الله. وإليك مثلا من ذلك يكون لك عونا على استجلاء أمثاله. قال تعالى: ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (٢١) لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا ﴾ (النبأ: ٢١- ٢٢) إلى قوله: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١) حَدَآئِقَ وَأَعْنَـٰبًا ﴾ (النبأ: ٣١- ٣٢) إلى قوله: ﴿ وَكَأْسًا دِهَاقًا (٣٤) لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴾ (النبأ ٣٤: ٣٥) فكان للابتداء بذكر جهنم ما يفسر المفاز في قوله: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴾ أنه الجنة لأن الجنة مكان الفوز. ثم كان قوله: ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴾ (النبأ: ٣٥) ما يحتمل لضمير ﴿ فِيهَا ﴾ من قوله: ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا ﴾ أن يعود إلى ﴿ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴾ وتكون (في) للظرفية المجازية أي الملابسة أو السببية أي لا يسمعون في ملابسة شرب الكأس ما يعتري شاربيها في الدنيا من اللغو واللجاج، وأن يعود إلى ﴿ مَفَازًا ﴾ بتأويله باسم مؤنث وهو الجنة وتكون (في) للظرفية الحقيقية أي لا يسمعون في الجنة كلاما لا فائدة فيه ولا كلاما مؤذيا وهذه المعاني لا يتأتى جميعها إلا بجمل كثيرة لو لم يقدم ذكر جهنم ولم يعقب بكلمة ﴿ مَفَازًا ﴾

ولم يؤخر ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ ولم يعقب بجملة ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ إلخ . ومما يجب التنبيه له أن مراعاة المقام في أن ينظم الكلام على خصوصيات بلاغية هي مراعاة من مقومات بلاغة الكلام وخاصة في إعجاز القرآن ، فقد تشتمل آية من القرآن على خصوصيات تتساءل نفس المفسر عن دواعيها وما يقتضيها فيتصدى لتطلب مقتضيات لها ربما جاء بها متكلفة أو مغصوبة ، ذلك لأنه لم يلتفت إلا إلى مواقع ألفاظ الآية ، في حال أن مقتضياتها في الواقع منوطة بالمقامات التي نزلت فيها الآية مثال ذلك قوله تعالى في سورة المجادلة : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ (المجادلة : ١٩) ثم قوله : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (المجادلة : ٢٢) فقد يخفى مقتضى اجتلاب حرف التنبيه في افتتاح كلتا الجملتين فيأوي المفسر إلى تطلب مقتضيه ويأتي بمقتضيات عامة مثل أن يقول : التنبيه للاهتمام بالخبر ، ولكن إذا قدرنا أن الآيتين نزلتا بمسمع من المنافقين والمؤمنين جميعا علمنا أن اختلاف حرف التنبيه في الأولى لمراعاة إيقاظ فريقي المنافقين والمؤمنين جميعا فالأولون لأنهم يتظاهرون بأنهم ليسوا من حزب الشيطان في نظر المؤمنين إذ هم يتظاهرون بالإسلام فكأن الله يقول : قد عرفنا دخائلكم ، وثاني الفريقين وهم المؤمنون نبهوا لأنهم غافلون عن دخائل الآخرين فكأنه يقول لهم : تيقظوا فإن الذين يتولون أعداءكم هم أيضا عدو لكم لأنهم حزب الشيطان والشيطان عدو الله وعدو الله عدو لكم ! واجتلاب حرف التنبيه في الآية الثانية لتنبيه المنافقين إلى فضيلة المسلمين لعلهم يرغبون فيها فيرعوون عن النفاق ،

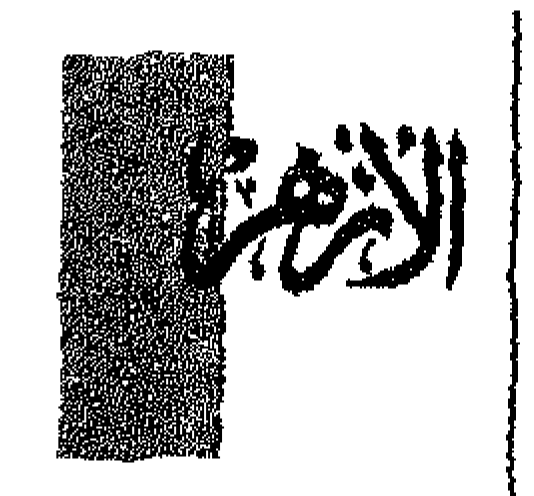


وتنبيه المسلمين إلى أن حولهم فريقا ليسوا من حزب الله فليسوا بمفلحين ليتوسموا أحوالهم حق التوسم فيحذروهم. ومرجع هذا الصنف من الإعجاز إلى ما يسمى في عرف علماء البلاغة بالنكت البلاغية فإن بلغاءهم كان تنافسهم في وفرة إيداع الكلام من هذه النكت، وبذلك تفاضل بلغاؤهم، فلما سمعوا القرآن انثالت على كل من سمعه من بلغائهم من النكت التي تفطن لها ما لم يجد من قدرته قبلا بمثله. وأحسب أن كل بليغ منهم قد فكر في الاستعانة بزملائه من أهل اللسان فعلم ألا مبلغ بهم إلى التظاهر على الإتيان بمثل القرآن فيما عهده كل واحد من ذوق زميله، هذا كله بحسب ما بلغت إليه قريحة كل واحد ممن سمع القرآن منهم من التفطن إلى نكت القرآن وخصائصه. ووراء ذلك نكت لا يتفطن إليها كل واحد، وأحسب أنهم تآمروا وتدارسوا بينهم في نواديهم أمر تحدي الرسول إياهم بمعارضة القرآن وتواصفوا ما اشتملت عليه بعض آياته العالقة بحوافظهم وأسماعهم من النكت والخصائص وأوقف بعضهم بعضا على ما لاح له من تلك الخصائص، وفكروا وقدروا وتدبروا فعلموا أنهم عاجزون عن الإتيان بمثلها إن انفردوا أو اجتمعوا، ولذلك سجل القرآن عليهم عجزهم في الحالتين فقال تارة: ﴿ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ ﴾ (يونس :٣٨) وقال لهم مرة :﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾(الإسراء :٨٨) فحالة اجتماعهم وتظاهرهم لم تكن مغفولًا عنها بينهم ضرورة أنهم متحدون بها. وهذه الناحية من هذه الجهة من الإعجاز هي أقوى نواحي إعجاز القرآن وهي التي يتحقق بها إعجاز أقصر سورة منه. وفي هذه الجهة ناحية أخرى وهي ناحية فصاحة اللفظ

وانسجام النظم وذلك بسلامة الكلام في أجزائه ومجموعه مما يجر الثقل إلى لسان الناطق به، ولغة العرب لغة فصيحة وأهلها مشهورون بفصاحة الألسن. قال فخر الدين الرازي[٢٩] في مفاتيح الغيب: "إن المحاسن اللفظية غير مهجورة في الكلام الحكمي، والكلام له جسم وهو اللفظ وله روح وهو المعنى وكما أن الإنسان الذي نور روحه بالمعرفة ينبغي أن ينور جسمه بالنظافة، كذلك الكلام، ورب كلمة حكيمة لا تؤثر في النفوس لركاكة لفظها".

وكان مما يعرض لشعرائهم وخطبائهم ألفاظ ولهجات لها بعض الثقل على اللسان، فأما ما يعرض للألفاظ فهو ما يسمى في علم الفصاحة بتنافر حروف الكلمة أو تنافر حروف الكلمات عند اجتماعها مثل مستشزرات والكنهبل في معلقة امرئ القيس، وسفنَّجة والخفيدد في معلقة طرفة، وقول القائل: "وليس قرب قبر حرب قبر" وقد سلم القرآن من هذا كله مع تفننه في مختلف الأغراض وما تقتضيه من تكاثر الألفاظ،وبعض العلماء أورد قوله تعالى: "﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ﴾(يس: ٦٠) وقوله: ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾(هود: ٤٨) وتصدى للجواب، والصواب أن

(٢٩) الفخر الرازي، أبو عبد الله، محمد بن عمر [٥٤٤- ٦٠٦هـ، ١١٥٠-١٢١٠م] إمام عصره في التفسير وعلوم الأوائل والمعقول والمنقول. ولقد انعكست ثقافته الموسوعية في آثاره الفكرية. ومنها [تفسيره الكبير- مفاتيح الغيب] و[معالم أصول الدين] و[محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين] و[المسائل الخمسون في أصول الكلام] و[المباحث المشرقية] و[المطالب العالية] و[نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز] و[شرح سقط الزند] للمعري.



ذلك غير وارد كما قاله المحققون لعدم بلوغه حد الثقل، ولأن حسن دلالة اللفظ على المعنى بحيث لا يخلفه فيها غيره مقدم على مراعاة خفة لفظه. فقد اتفق أئمة الأدب على أن وقوع اللفظ المتنافر في أثناء الكلام الفصيح لا يزيل عنه وصف الفصاحة فإن العرب لم يعيبوا معلقة امرئ القيس ولا معلقة طرفة. قال أبو العباس المبرد(٣٠): "وقد يضطر الشاعر المفلق والخطيب المصقع والكاتب البليغ فيقع في كلام أحدهم المعنى المستغلق واللفظ المستكره فإذا انعطفت عليه جنبتا الكلام غطتا على عواره وسترتا من شينه" وأما ما يعرض للهجات العرب فذلك شيء تفاوتت في مضماره جياد ألسنتهم وكان المجلى فيها لسان قريش ومن حولها من القبائل المذكورة في المقدمة السادسة وهو مما فسر به حديث: "أنزل القرآن على سبعة أحرف"، ولذلك جاء القرآن بأحسن اللهجات وأخفها وتجنب المكروه من اللهجات، وهذا من أسباب تيسير تلقي الأسماع له ورسوخه فيها. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾(القمر:١٧) ومما أعده في هذه الناحية صراحة كلماته باستعمال أقرب الكلمات في لغة العرب دلالة على المعاني المقصودة، وأشملها لمعان عديدة مقصودة بحيث لا يوجد في كلمات القرآن كلمة تقصر دلالتها عن جميع المقصود منها في حالة تركيبها، ولا تجدها مستعملة إلا في حقائقها مثل إيثار كلمة حرد في قوله

---

(٣٠) المبرد، أبو العباس، محمد بن يزيد [٢١٠- ٢٨٦هـ، ٨٢٦- ٨٩٩م] إمام العربية والأدب والأخبار في عصره. من آثاره: [الكامل] و[المقتضب] و[إعراب القرآن] و[شرح لامية العرب].

تعالى: ﴿وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ﴾ (القلم: ٢٥) إذ كان جميع معاني الحرد صالحا للإرادة في ذلك الغرض أو مجازات أو استعارات أو نحوها مما تنصب عليه القرائن في الكلام فإن اقتضى الحال تصرفا في معنى اللفظ كان التصرف بطريق التضمين وهو كثير في القرآن مثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْاْ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِيٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ﴾ (الفرقان: ٤٠) فجاء فعل أتى مضمنا معنى مروا فعدي بحرف على؛ لأن الإتيان تعدى إلى اسم القرية والمقصود منه الاعتبار بمآل أهلها فإنه يقال أتى أرض بني فلان ومر على حي كذا وهذه الوجوه كلها لا تخالف أساليب الكلام البليغ بل هي معدودة من دقائقه ونفائسه التي تقل نظائرها في كلام بلغائهم لعجز فطنة الأذهان البشرية عن الوفاء بجميعها. وأما الجهة الثانية وهي ما أبدعه القرآن من أفانين التصرف في أساليب الكلام البليغ وهذه جهة مغفولة من علم البلاغة، فاعلم أن أدب العرب نوعان شعر ونثر، والنثر خطابة وأسجاع كهان، وأصحاب هذه الأنواع وإن تنافسوا في ابتكار المعاني وتفاوتوا في تراكيب أدائها في الشعر فهم بالنسبة إلى الأسلوب قد التزموا في أسلوبي الشعر والخطابة طريقة واحدة تشابهت فنونها فلم يكادوا يعدون ما ألفوه من ذلك حتى إنك لتجد الشاعر يحذو حذو الشاعر في فواتح القصائد وفي كثير من تراكيبها، فكم من قصائد افتتحت بقولهم "بانت سعاد" للنابغة[٣١] وكعب بن زهير، وكم من شعر افتتح بـ:

---

(٣١) النابغة الذبياني، أبو أمامة، زياد بن معاوية بن ضباب [١٨ق.هـ - ٦٠٤م]. أحد الأشراف في الجاهلية، ومن فحول الطبقة الأولى من شعراء الجاهلية. كانت تضرب له قبة من جلد أحمر في سوق عكاظ، فيأتيه الشعراء يعرضون=



«يا خليلي أربعا واستخبرا»

وكم من شعر افتتح بـ: «يا أيها الراكب المزجي مطيته»

وقال امرؤ القيس في معلقته:

وقوفا بها صحبي علي مطيهم   يقولون لا تهلك أسى وتحمل

فقال طرفة[٣٢] في معلقته بيتا مماثلا له سوى أن كلمة القافية منه "وتجلد". وكذلك القول في خطبهم، تكاد تكون لهجة واحدة وأسلوبا واحدا فيما بلغنا من خطب سحبان[٣٣] وقس بن ساعدة[٣٤] وكذلك أسجاع الكهان وهي قد اختصت بقصر الفقرات وغرابة الكلمات. إنما كان الشعر الغالب على كلامهم، وكانت الخطابة بحالة ندور لندرة مقاماتها. قال عمر: " كان الشعر علم القوم ولم يكن لهم علم أصح منه" فانحصر تسابق جياد البلاغة في ميدان الكلام المنظوم، فلما جاء القرآن ولم يكن شعرا ولا سجع كهان، وكان من أسلوب النثر أقرب إلى الخطابة، ابتكر للقول أساليب كثيرة بعضها تتنوع بتنوع

=عليه قصائدهم. له ديوان صغير.

(٣٢) طرفة بن العبد، أبو عمرو، [٨٦-٦٠ق.هـ، ٥٣٨-٥٦٤م]. من شعراء الطبقة الأولى في الجاهلية، وأحد أصحاب المعلقات، في شعره حكمة، وله ديوان صغير.

(٣٣) سحبان وائل، سحبان بن زفر بن إياس الوائلي [٥٤هـ، ٦٧٤م]. يضرب به المثل في الفصاحة والخطابة والبيان. أدرك الإسلام، وهداه الله إليه.

(٣٤) قسّ بن ساعدة بن عمرو الإيادي [٢٣ق.هـ، ٦٠٠م]. أحد حكماء العرب وخطبائهم في الجاهلية، كان أسقف نجران، أدركه النبي ﷺ، ورآه في عكاظ قبل النبوة.

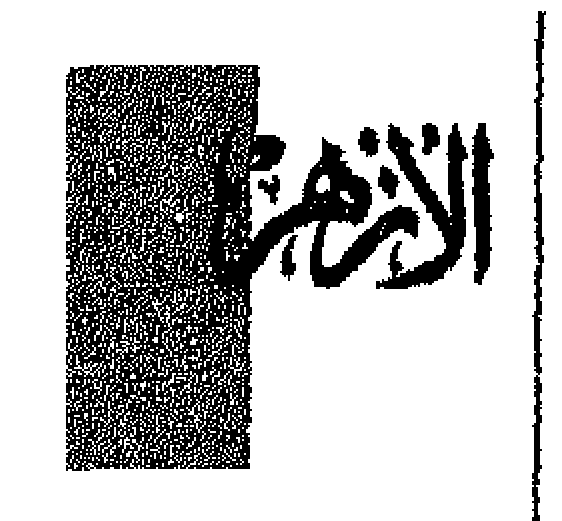
المقاصد، ومقاصدها بتنوع أسلوب الإنشاء، فيها أفانين كثيرة فيجد فيه المطلع على لسان العرب بغيته ورغبته ولهذا قال الوليد ابن المغيرة لما استمع إلى قراءة النبي ﷺ: "والله ما هو بكاهن ما هو بزمزمته ولا سجعه، وقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه، وقريضه ومبسوطه ومقبوضه. ما هو بشاعر" وكذلك وصفه أنيس بن جنادة الغفاري الشاعر أخو أبي ذر حين انطلق إلى مكة ليسمع من النبي ﷺ ويأتي بخبره إلى أخيه فقال: "لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم، ولقد وضعته على أقراء الشعر[٣٥] فلم يلتئم، وما يلتئم على لسان واحد بعدي أنه شعر" ثم أسلم وورد مثل هذه الصفة عن عتبة بن ربيعة[٣٦] والنضر بن الحارث[٣٧]، والظاهر أن المشركين لما لم يجدوا بدًّا من إلحاق القرآن بصنف من أصناف كلامهم ألحقوه بأشبه الكلام به فقالوا: إنه شعر تقريبا للدهماء بما عهده القوم من الكلام الجدير بالاعتبار من حيث ما فيه من دقائق المعاني وأحكام الانتظام والنفوذ إلى العقول، فإنه مع بلوغه أقصى حد في فصاحة العربية ومع طول أغراضه وتفنن معانيه وكونه نثرا لا شعرا ترى أسلوبه يجري على الألسنة سلسا سهلا لا تفاوت في فصاحة تراكيبه، وترى حفظه أسرع من حفظ الشعر. وقد اختار العرب الشعر لتخليد أغراضهم وآدابهم لأن ما

---

(٣٥) الأقراء، جمع قَرء، وهو الطريق.

(٣٦) عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، أبو الوليد [٢هـ، ٦٢٤م]. كبير قريش، وأحد سادتها في الجاهلية، كان من رءوس الشرك، الذين قاوموا الإسلام، وقتل يوم بدر.

(٣٧) النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد مناف [٢هـ، ٦٢٤م]. كان من شجعان قريش ووجوهها، وصاحب لواء المشركين يوم بدر. أصابته جراحة يوم بدر، ووقع في الأسر، ومات من جراحته.



يقتضيه من الوزن يلجئ إلى التدريب على ألفاظٍ متوازنة فيكسبها ذلك التوازن تلاؤما، فتكون سلسةً على الألسن، فلذلك انحصر تسابق جياد البلاغة في الكلام المنظوم وفحول الشعراء مع ذلك متفاوتون في سلاسة الكلام مع تسامحهم في أمور كثيرة اغتفرها الناس لهم وهي المسماة بالضرورات. بحيث لو كان لواحد من البشر أن يتكلف فصاحة لما يقوله من كلام ويعاود تنقيحه وتغيير نظمه بإبدال الكلمات أو بالتقديم لما حقه التأخير، أو التأخير لما حقه التقديم، أو حذف أو زيادة لقضى زمنا مديدا في تأليف ما يقدر بسورة من متوسط سور القرآن، ولما سلم مع ذلك من جمل يتعثر فيها اللسان. ولم يدع مع تلك الفصاحة داع إلى ارتكاب ضرورة أو تقصير في بعض ما تقتضيه البلاغة، فبني نظمه على فواصل وقرائن متقاربة فلم تفته سلاسة الشعر ولم ترزح تحت قيود الميزان، فجاء القرآن كلاما منثورا ولكنه فاق في فصاحته وسلاسته على الألسنة وتوافق كلماته وتراكيبه في السلامة من أقل تنافر وتعثر على الألسنة، فكان كونه من النثر داخلا في إعجازه وقد اشتمل القرآن على أنواع أساليب الكلام العربي وابتكر أساليب لم يكونوا يعرفونها وإن لذلك التنويع حكمتين داخلتين في الإعجاز: أولاهما: ظهور أنه من عند الله إذ قد تعارف الأدباء في كل عصر أن يظهر نبوغ نوابغهم على أساليب مختلفة كل يجيد أسلوبا أو أسلوبين . الثانية: أن يكون في ذلك زيادة التحدي للمتحدين به بحيث لا يستطيع أحد أن يقول إن هذا الأسلوب لم تسبق لي معالجته ولو جاءنا بأسلوب آخر لعارضته. نرى من أعظم الأساليب التي خالف بها القرآن أساليب العرب

أنه جاء في نظمه بأسلوب جامع بين مقصديه وهما: مقصد الموعظة ومقصد التشريع، فكان نظمه يمنح بظاهره السامعين ما يحتاجون أن يعلموه وهو في هذا النوع يشبه خطبهم، وكان في مطاوي معانيه ما يستخرج منه العالم الخبير أحكاما كثيرة في التشريع والآداب وغيرها، وقد قال في الكلام على بعضه: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ (آل عمران: ٧) هذا من حيث ما لمعانيه من العموم والإيماء إلى العلل والمقاصد وغيرها ومن أساليبه ما أسميه بالتفنن وهو بداعة تنقلاته من فن إلى فن بطرائق الاعتراض والتنظير والتذييل والإتيان بالمترادفات عند التكرير تجنبا لثقل تكرير الكلم، وكذلك الإكثار من أسلوب الالتفات المعدود من أعظم أساليب التفنن عند بلغاء العربية، فهو في القرآن كثير، ثم الرجوع إلى المقصود فيكون السامعون في نشاط متجدد بسماعه وإقبالهم عليه، ومن أبدع أمثلة ذلك قوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة: ١٧- ٢٠) بحيث كان أكثر أساليب القرآن من الأساليب البديعة العزيز مثلها في شعر العرب وفي نثر بلغائهم من الخطباء وأصحاب بدائه الأجوبة. وفي هذا التفنن والتنقل مناسبات بين المتنقل منه والمتنقل إليه هي في منتهى الرقة والبداعة بحيث



لا يشعر سامعه وقارئه بانتقاله إلا عند حصوله. وذلك التفنن مما يعين على استماع السامعين ويدفع سآمة الإطالة عنهم، فإن من أغراض القرآن استكثار أزمان قراءته كما قال الله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْءَانِ﴾ (المزمل: ٢٠) فقوله: ﴿مَا تَيَسَّرَ﴾ يقتضي الاستكثار بقدر التيسر، وفي تناسب أقواله وتفنن أغراضه مجلبة لذلك التيسير، وعون على التكثر، نقل عن أبي بكر بن العربي أنه قال في كتابه سراج المريدين: "ارتباط آي القرآن بعضها مع بعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسعة المعاني منتظمة المباني، علم عظيم" ونقل الزركشي(٣٨) عن عز الدين بن عبد السلام(٣٩): "المناسبة علم حسن ويشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع في أمر متحد مرتبط أوله بآخره فإن وقع على أسباب مختلفة لم يقع فيه ارتباط، والقرآن نزل في نيف وعشرين سنة في أحكام مختلفة شرعت لأسباب مختلفة، وما كان كذلك لا يتأتي ربط بعضه ببعض". وقال شمس الدين محمود الأصفهاني(٤٠) في تفسيره نقلا عن الفخر الرازي أنه قال:

---

(٣٨) الزركشي، أبو عبد الله، بدر الدين، محمد بن بهادر [٧٤٥- ٧٩٤هـ، ١٣٤٤- ١٣٩٢م] فقيه شافعي وأصولي. من آثاره: [البحر المحيط] في أصول الفقه، و[المنثور] المعروف بقواعد الزركشي، و[التنقيح لألفاظ الجامع الصحيح].

(٣٩) عز الدين بن عبد السلام، سلطان العلماء، عبد العزيز بن عبد السلام [٥٧٧- ٦٦٠هـ، ١١٨١- ١٢٦٢م] فقيه وأصولي، مجتهد، مجاهد، من آثاره: [التفسير الكبير] و[الإلمام في أدلة الأحكام] و[قواعد الشريعة] و[قواعد الأحكام في إصلاح الأنام] و[الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز] في مجاز القرآن.

(٤٠) شمس الدين الأصفهاني، أبو عبد الله، محمد بن محمود [٦١٦-٦٨٨هـ،=

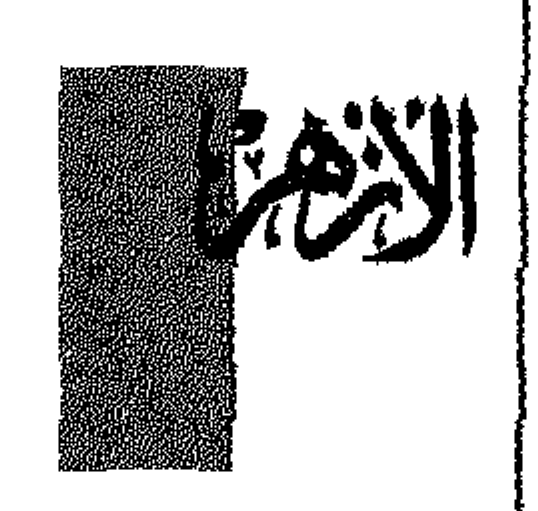
"إن القرآن كما أنه معجز بسبب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه هو أيضا معجز بسبب ترتيبه ونظم آياته، ولعل الذين قالوا إنه معجز بسبب أسلوبه أرادوا ذلك".

إن بلاغة الكلام لا تنحصر في أحوال تراكيبه اللفظية، بل تتجاوز إلى الكيفيات التي تؤدى بها تلك التراكيب.

فإن سكوت المتكلم البليغ في جملة سكوتا خفيفا قد يفيد من التشويق إلى ما يأتي بعده ما يفيده إبهام بعض كلامه ثم تعقيبه ببيانه، فإذا كان من مواقع البلاغة نحو الإتيان بلفظ الاستئناف البياني ،فإن السكوت عند كلمة وتعقيبها بما بعدها يجعل ما بعدها بمنزلة الاستئناف البياني وإن لم يكنه عينه، مثاله قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ (١٥) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾(النازعات : ١٥ : ١٦)

فإن الوقف على قوله ﴿مُوسَىٰ﴾ يحدث في نفس السامع ترقبا لما يبين حديث موسى، فإذا جاء بعده ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ﴾ إلخ حصل البيان مع ما يحصل عند الوقف على كلمة موسى من قرينة من قرائن الكلام لأنه على سجعة الألف مثل قوله: "طوى،طغى، تزكي" إلخ. وقد بينت عند تفسير قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة:٢) أنك إن وقفت على كلمة ﴿رَيْبَ﴾ كان من قبيل إيجاز الحذف أي لا ريب في أنه الكتاب

=١٢١٩- ١٢٨٩م] قاض من فقهاء الشافعية. من آثاره: [شرح المحصول] و[القواعد] في أصول الفقه والدين والمنطق والجدل و[غاية المطلب] في المنطق.

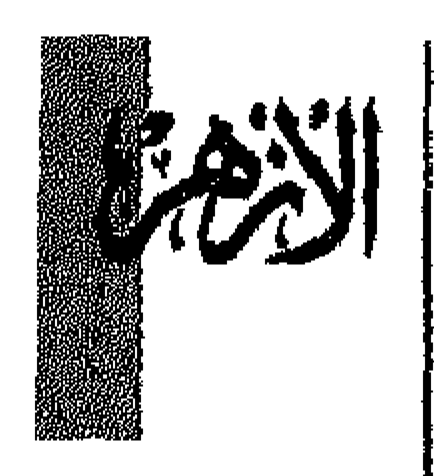


فكانت جملة ﴿فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ ابتداء كلام وكان مفاد حرف (في) استنزال طائر المعاندين أي: إن لم يكن كله هدى فإن فيه هدى. وإن وصلت "فيه" كان من قبيل الإطناب وكان ما بعده مفيدا أن هذا الكتاب كله هدى. ومن أساليب القرآن العدول عن تكرير اللفظ والصيغة فيما عدا المقامات التي تقتضي التكرير من تهويل ونحوه، ومما عدل فيه عن تكرير الصيغة قوله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ (التحريم: ٤) فجاء بلفظ قلوب جمعا مع أن المخاطب امرأتان فلم يقل قلبا كما تجنبا لتعدد صيغة المثنى. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا﴾ (الأنعام: ١٣٩) فروعي معنى ﴿مَا﴾ الموصولة مرة فأتى بضمير جماعة المؤنث وهو ﴿خَالِصَةٌ﴾ وروعي لفظ ﴿مَا﴾ الموصولة فأتى بـ ﴿وَمُحَرَّمٌ﴾ مذكرا مفردا. إن المقام قد يقتضي شيئين متساويين أو أشياء متساوية فيكون البليغ مخيرا في أحدهما وله ذكرهما تفننا وقد وقع في القرآن كثير وإذا قلنا ... فكلوا منها من هذا: من ذلك قوله: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾ (البقرة: ٣٥) بواو العطف في سورة البقرة، وقوله في الأعراف ﴿فَكُلَا﴾ بفاء التفريع وكلاهما مطابق للمقام فإنه أمر ثانٍ وهو أمر مفرع على الإسكان فيجوز أن يحكى بكل من الاعتبارين، ومنه قوله في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا﴾ (البقرة: ٥٨). وفي سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا﴾ (الأعراف: ١٦١) فعبر مرة بـ ﴿ادْخُلُوا﴾ ومرة بـ ﴿اسْكُنُوا﴾ وعبر مرة بواو العطف ومرة

بفاء التفريع. وهذا التخالف بين الشيئين يقصد لتلوين المعاني المعادة حتى لا تخلو إعادتها عن تجدد معنى وتغاير أسلوب، فلا تكون إعادتها مجرد تذكير. قال في الكشاف في تفسير قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (الأنبياء: ٤) ليس بواجب أن يجاء بالآكد في كل موضع ولكن يجاء بالوكيد تارة وبالآكد أخرى كما يجاء بالحسن في موضع وبالأحسن في غيره ليفتن الكلام افتنانا". ومنها اتساع أدب اللغة في القرآن. لم يكن أدب العرب السائر فيهم غير الشعر، فهو الذي يحفظ وينقل ويسير في الآفاق، وله أسلوب خاص من انتقاء الألفاظ وإبداع المعاني، وكان غيره من الكلام عسير العلوق بالحوافظ، وكان الشعر خاصا بأغراض وأبواب معروفة أشهرها وأكثرها النسيب والحماسة والرثاء والهجاء والفخر، وأبواب أخر لهم فيها شعر قليل وهي الملح والمديح. ولهم من غير الشعر الخطب، والأمثال، والمحاورات: فأما الخطب فكانت تنسى بانتهاء المقامات المقولة فيها فلا يحفظ من ألفاظها شيء، وإنما يبقى في السامعين التأثر بمقاصدها زمانا قليلا للعمل به فتأثر المخاطبين بها جزئي ووقتي. وأما الأمثال فهي ألفاظ قصيرة يقصد منها الاتعاظ بمواردها، وأما المحاورات فمنها عادية لا يهتمون بما تتضمنه إذ ليست من الأهمية بحيث تنقل وتسير، ومنها محاورات نوادٍ وهي المحاورات الواقعة في المجامع العامة والمنتديات وهي التي أشار إليها لبيد[٤١] بقوله:

---

(٤١) لبيد العامري، أبو عقيل، لبيد بن ربيعة بن مالك [٤١هـ، ٦٦١م] أحد الشعراء الفرسان الأشراف في الجاهلية. ومن أصحاب المعلقات. أدرك=



وكثيرة غربائها مجهولة	ترجى نوافلها ويخشى ذامها
غلب تشذر بالذحول كأنها	جن البدى رواسيا أقدامها
أنكرت باطلها ويؤت بحقها	عندي ولم يفخر على كرامها

وتلك مثل مجامعهم عند الملوك وفي مقامات المفاخرات وهي نادرة الوقوع قليلة السيران وحيدة الغرض؛ إذ لا تعدو المفاخرات والمبالغات فلا يحفظ منها إلا ما فيه نكتة أو ملحة أو فقرات مسجوعة مثل خطاب امرئ القيس مع شيوخ بني أسد فجاء القرآن بأسلوب في الأدب غض جديد صالح لكل العقول، متفنن إلى أفانين أغراض الحياة كلها معط لكل فن ما يليق به من المعاني والألفاظ واللهجة: فتضمن المحاورة والخطابة والجدل والأمثال (أي الكلم الجوامع) والقصص والتوصيف والرواية. وكان لفصاحة ألفاظه وتناسبها في تراكيبه وترتيبه على ابتكار أسلوب الفواصل العجيبة المتماثلة في الأسماع وإن لم تكن متماثلة الحروف في الأسجاع، كان لذلك سريع العلوق بالحوافظ خفيف الانتقال والسير في القبائل، مع كون مادته ولحمته هي الحقيقة دون المبالغات الكاذبة والمفاخرات المزعومة، فكان بذلك له صولة الحق وروعة لسامعيه، وذلك تأثير روحاني وليس بلفظي ولا معنوي. وقد رأيت المحسنات في البديع جاءت في القرآن أكثر مما جاءت في شعر العرب، وخاصة الجناس كقوله:

=الإسلام، ووفد على النبي، ﷺ، وهو معدود من الصحابة. هجر الشعر بعد إسلامه. وله ديوان صغير.

﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾(الكهف: ١٠٤) والطباق كقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾(الحج: ٤) وقد ألف ابن أبي الأصبع[٤٢] كتابا في بديع القرآن. وصار- لمجيئه نثرا - أدبا جديدا غضا ومتناولا لكل الطبقات. وكان لبلاغته وتناسقه نافذ الوصول إلى القلوب حتى وصفوه بالسحر وبالشعر ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴾(الطور: ٣٠)

مبتكرات القرآن

هذا وللقرآن مبتكرات تميز بها نظمه عن بقية كلام العرب. فمنها أنه جاء على أسلوب يخالف الشعر لا محالة وقد نبه عليه العلماء المتقدمون. وأنا أضم إلى ذلك أن أسلوبه يخالف أسلوب الخطابة بعض المخالفة، بل جاء بطريقة كتاب يقصد حفظه وتلاوته وذلك من وجوه إعجازه إذ كان نظمه على طريقة مبتكرة ليس فيها اتباع لطرائقها القديمة في الكلام و أعد من ذلك أنه جاء بالجمل الدالة على معان مفيدة محررة شأن الجمل العلمية والقواعد التشريعية ، فلم يأت بعمومات شأنها التخصيص غير مخصوصة، ولا بمطلقات تستحق التقييد غير مفيدة، كما كان يفعله العرب لقلة اكتراثهم بالأحوال القليلة والأفراد النادرة. مثاله قوله تعالى:﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَـٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ

---

(٤٢) ابن أبي الإصبع، عبد العظيم بن عبد الواحد بن ظافر بن أبي الإصبع العدواني [٥٨٥-٦٥٤هـ، ١١٨٩-١٢٥٦م] من العلماء بالأدب. من آثاره: [بديع القرآن] في أنواع البديع الواردة في الآيات الكريمة و[تحرير التحبير] و[الجواهر السوانح في سرائر القرائح].



وَٱلْمُجَٰهِدُونَ ﴾(النساء: ٩٥) وقوله: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ﴾(القصص: ٥٠) فبين أن الهوى قد يكون محمودا إذا كان هوى المرء عن هدى، وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾(العصر٢ : ٣) ومنها أنه جاء على أسلوب التقسيم والتسوير وهي سنة جديدة في الكلام العربي أدخل بها عليه طريقة التبويب والتصنيف وقد أومأ إليها في الكشاف إيماءً. ومنها الأسلوب القصصي في حكاية أحوال النعيم والعذاب في الآخرة، وفي تمثيل الأحوال، وقد كان لذلك تأثير عظيم على نفوس العرب إذ كان فن القصص مفقودا من أدب العربية إلا نادرا، كان في بعض الشعر كأبيات النابغة في الحية التي قتلت الرجل وعاهدت أخاه وغدر بها، فلما جاء القرآن بالأوصاف بهت بها العرب كما في سورة الأعراف من وصف الجنة وأهل النار وأهل الأعراف ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ ﴾ (الأعراف: ٤٤) وفي سورة الحديد ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ ﴾(الحديد: ١٣) الآيات. ومما يتبع هذا أن القرآن يتصرف في حكاية أقوال المحكي عنهم فيصوغها على ما يقتضيه أسلوب إعجازه لا على الصيغة التي صدرت فيها، فهو إذا حكى أقوالا غير عربية صاغ مدلولها في صيغة تبلغ حد الإعجاز بالعربية. وإذا حكى أقوالا عربية تصرف فيها تصرفا يناسب أسلوب المعبر مثل ما يحكيه عن العرب فإنه لا يلتزم حكاية ألفاظهم بل يحكي حاصل كلامهم، وللعرب في حكاية الأقوال اتساع مداره على الإحاطة بالمعنى دون التزام الألفاظ، فالإعجاز الثابت للأقوال المحكية في القرآن هو إعجاز للقرآن لا للأقوال المحكية.

ومن هذا القبيل حكاية الأسماء الواقعة في القصص فإن القرآن يغيرها إلى ما يناسب حسن مواقعها في الكلام من الفصاحة مثل تغيير شاول إلى طالوت، وتغيير اسم تارح أبي إبراهيم إلى آزر.

وكذلك التمثيل فقد كان في أدب العرب الأمثال وهي حكاية أحوال مرموز لها بتلك الجمل البليغة التي قيلت فيها أو قيلت لها المسماة بالأمثال، فكانت تلك الجمل مشيرة إلى تلك الأحوال، إلا أنها لمَّا تداولتها الألسن في الاستعمال وطال عليها الأمد نُسِيَت الأحوالُ التي وردت فيها ولم يبق للأذهان عند النطق بها إلا الشعور بمغازيها التي تقال لأجلها.

أما القرآن فقد أوضح الأمثال وأبدع تركيبها كقوله تعالى ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٍۖ ﴾ (إبراهيم: ١٨) وقوله: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾ (الحج: ٣١) وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً ﴾ إلى قوله: ﴿ فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ (النور: ٣٩- ٤٠) وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ ﴾ (الرعد: ١٤).

لم يلتزم القرآن أسلوبا واحدًا، واختلفت سوره وتفننت، فتكاد تكون لكل سورة لهجة خاصة، فإن بعضها بني على فواصل وبعضها ليس كذلك. وكذلك فواتحها منها ما افتتح بالاحتفال كالحمد، ويا أيها الذين آمنوا، والم ذلك الكتاب، وهي قريب مما نعبر عنه في صناعة الإنشاء بالمقدِّمات. ومنها ما افتتح بالهجوم على الغرض



من أول الأمر نحو﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ (محمد: ١) و﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ ﴾ (التوبة: ١). ومن أبدع الأساليب في كلام العرب الإيجاز وهو متنافسهم وغاية تتبارى إليها فصحاؤهم، وقد جاء القرآن بأبدعه إذ كان- مع ما فيه من الإيجاز المبيَّن في علم المعاني- فيه إيجاز عظيم آخر وهو صلوحية معظم آياته لأن تؤخذ منها معانٍ متعددة كلها تصلح لها العبارة باحتمالات لا ينافيها اللفظ، فبعض تلك الاحتمالات مما يمكن اجتماعه، وبعضها وإن كان فرض واحد منه يمنع من فرض آخر فتحريك الأذهان إليه وإخطارُه بها يكفي في حصول المقصد من التذكير به للامتثال أو الانتهاء.

ولولا إيجاز القرآن لكان أداء ما يتضمنه من المعاني في أضعاف مقدار القرآن. وأسرار التنزيل ورموزه في كل باب بالغة من اللطف والخفاء حدًّا يدق عن تفطن العالم ويزيد عن تبصره، ولا ينبئك مثل خبير.

إنك تجد في كثير من تراكيب القرآن حذفا ولكنك لا تعثر على حذف يخلو الكلام من دليل عليه من لفظ أو سياق، زيادة على جمعه المعاني الكثيرة في الكلام القليل، قال في الكشاف في سورة المدثر «الحذف والاختصار هو نهج التنزيل» قال بعض بطارقة الروم لعمر بن الخطاب لما سمع قوله تعالى﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ (النور: ٥٢): قد جمع الله في هذه الآية ما أنزل على عيسى من أحوال الدنيا والآخرة.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ (القصص:٧)، جمع بين أمرين ونهيين وبشارتين، ومن ذلك قوله ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ (البقرة: ١٧٩) مقابلا أوجز كلام عرف عندهم وهو «القتل أنفى للقتل»، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾ (هود: ٤٤) ولقد بسط السكاكي في المفتاح آخر قسم البيان نموذجا مما اشتملت عليه هذه الآية من البلاغة والفصاحة، وتصدى أبو بكر الباقلاني في كتابه المسمى «إعجاز القرآن إلى بيان ما في سورة النمل من الخصائص» فارجع إليهما.

وأعد من أنواع إيجازه إيجاز الحذف مع عدم الالتباس، وكثر ذلك في حذف القول، ومن أبدع الحذف قوله تعالى: ﴿فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝٤٠ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٤١ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ﴾ (المدثر: ٤٠ - ٤٢) أي يتذاكرون شأن المجرمين فيقول من علموا شأنهم: سألناهم فقلنا: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ﴾. قال في الكشاف: قوله: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ﴾ ليس ببيان للتساؤل عنهم وإنما هو حكاية قول المسئولين، أي أن المسئولين يقولون للسائلين قلنا لهم: ما سلككم في سقر؟ قالوا: لم نك من المصلين. اهـ. ومنه حذف المضاف كثيرا كقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ (البقرة:١٧٧). وحذف الجمل التي يدل الكلام على تقديرها نحو قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ﴾ (الشعراء:٦٣) إذ التقدير: فضرب فانفلق. ومن ذلك الإخبار عن أمر خاص بخبر يعمه وغيره لتحصل فوائد: فائدة الحكم العام، وفائدة الحكم الخاص، وفائدة أن هذا المحكوم



عليه بالحكم الخاص هو من جنس ذلك المحكوم عليه بالحكم العام.

وقد تتبعت أساليب من أساليب نظم الكلام في القرآن فوجدتها مما لا عهد بمثلها في كلام العرب، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۝١٠ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ ﴾ (الطلاق: ١٠-١١) فإبدال (رسولًا) من (ذكرًا) يفيد أن هذا الذكر ذكر هذا الرسول، وأن مجيء الرسول هو ذكر لهم، وأن وصفه بقوله: ﴿ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ يفيد أن الآيات ذكرٌ.

ونظير هذا قوله: ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ (البينة: ١، ٢) الآية، وليس المقام بسامح لإيراد عديد الأمثلة من هذا. ولعله يأتي في أثناء التفسير.

ومن بديع الإيجاز في القرآن وأكثره ما يسمى بالتضمين، وهو يرجع إلى إيجاز الحذف، والتضمين أن يضمَّن الفعلُ أو الوصفُ معنى فعلٍ أو وصفٍ آخر ويشار إلى المعنى المضمن بذكر ما هو من متعلقاته من حرف أو معمول فيحصل في الجملة معنيان.

ومن هذا الباب ما اشتمل عليه من الجمل الجارية مجرى الأمثال، وهذا باب من أبواب البلاغة نادر في كلام بلغاء العرب، وهو الذي لأجله عدت قصيدة زهير في المعلقات فجاء في القرآن ما يفوق ذلك كقوله تعالى: ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾(الإسراء: ٨٤) وقوله: ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ﴾(النور: ٥٣) وقوله: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (فصلت: ٣٤)

وسلك القرآن مسلك الإطناب لأغراض من البلاغة، ومن أهم مقامات الإطناب مقام توصيف الأحوال التي يراد بتفصيل وصفها إدخال الروع في قلب السامع وهذه طريقة عربية في مثل هذا كقول ابن زيَّابَة(٤٣):

نُبِّئْتَ عَمْرًا غَارِزًا رَأْسَهُ   فِي سِنَةٍ يُوعِدُ أَخْوَالَهُ

فمن آيات القرآن في مثله قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ (٢٦) وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ (٢٨) وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ (القيامة: ٢٦- ٢٩) وقوله: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ (٨٣) وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾(الواقعة: ٨٣، ٨٤) وقوله: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾(إبراهيم: ٤٣)

ومن أساليب القرآن المنفرد بها التي أغفل المفسرون اعتبارها أنه يرد فيه استعمال اللفظ المشترك في معنيين أو معان إذا صلُح المقام بحسب اللغة العربية لإرادة ما يصلح منها، واستعمال اللفظ في معناه الحقيقي والمجازي إذا صلح المقام لإرادتهما، وبذلك تكثر معاني الكلام مع الإيجاز وهذا من آثار كونه معجزة خارقة لعادة كلام البشر ودالة على أنه منزل من لدن العليم بكل شيء والقدير عليه. وقد نبهنا على ذلك وحققناه في المقدمة التاسعة. ومن أساليبه الإتيان بالألفاظ التي تختلف معانيها باختلاف حروفها أو اختلاف حركات حروفها وهو من أسباب

(٤٣) ابن زيّابة، عمرو بن لأي، من بني تيم اللات بن ثعلبة: شاعر جاهلي. من أشراف بكر.

اختلاف كثير من القراءات مثل ﴿وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ﴾(الزخرف: ١٩) قرئ (عند) بالنون دون ألف وقرئ (عباد) بالموحدة وألف بعدها، ومثل ﴿إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ﴾ (الزخرف: ٥٧) بضم الصاد وكسرها.

واعلم أن مما يندرج تحت جهة الأسلوب ما سماه أئمة نقد الأدب بالجزالة، وما سَمّوه بالرِّقَّة وبينوا لكل منهما مقاماته وهما راجعتان إلى معاني الكلام، ولا تخلو سورة من القرآن من تكرر هذين الأسلوبين، وكل منهما بالغ غايته في موقعه، فبينما تسمعه يقول ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾(الزمر: ٥٣) ويقول: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾(النساء: ٢٨) إذ تسمعه يقول: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةً مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾(فصلت: ١٣) قال عياض في الشفا: إن عتبة بن ربيعة لما سمع هذه الآية أمسك بيده على فم النبي ﷺ وقال له: ناشدتك الله والرَّحِمَ إلّا ما كففْتَ.

عادات القرآن

يحق على المفسر أن يتعرف عادات القرآن من نظمه وكَلِمه. وقد تعرض بعض السلف لشيء منها، فعن ابن عباس: كل كاس في القرآن فالمراد بها الخمر. وذكر ذلك الطبري[٤٤] عن

(٤٤) الطبري، أبو جعفر، محمد بن جرير [٢٢٤ - ٣١٠هـ، ٨٣٩ - ٩٢٣م] إمام في التفسير والفقه والتاريخ. من آثاره: [أخبار الرسل والملوك] و[جامع البيان في تفسير القرآن] و[اختلاف الفقهاء].

الضحاك[٤٥] أيضًا.

وفي صحيح البخاري في تفسير سورة الأنفال قال ابن عيينة: ما سمى الله مطرًا في القرآن إلا عذابًا، وتسميه العرب الغيث كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾ (الشورى: ٢٨).

وعن ابن عباس أن كل ما جاء من «يا أيها الناس» فالمقصود به أهل مكة المشركون.

وقال الجاحظ في البيان: «وفي القرآن معانٍ لا تكاد تفترق، مثل الصلاة والزكاة، والجوع والخوف، والجنة والنار، والرغبة والرهبة، والمهاجرين والأنصار، والجن والإنس». قلت: والنفع والضر، والسماء والأرض.

وذكر صاحب الكشاف وفخر الدين الرازي أن من عادة القرآن أنه ما جاء بوعيد إلا أعقبه بوعد، وما جاء بنذارة إلا أعقبها ببشارة. ويكون ذلك بأسلوب الاستطراد والاعتراض لمناسبة التضاد، ورأيت منه قليلا في شعر العرب كقول لبيد:

فاقطعْ لُبانة من تعرَّضَ وصلُه ... فلشرُّ واصِل خلة صَرَّامُها

واحْبُ المُجامِلَ بالجزيل وصرمُه ... باقٍ إذا ظلِعَتْ وزاغَ قِوامها

(٤٥) الضحاك بن عثمان [١٨٠هـ - ٧٩٦م] من كبار أصحاب الإمام مالك بالمدينة، علامة قريش بأخبار العرب وأيامها في أشعارها.



وفي الكشاف في تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝٥٠ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ (الصافات: ٥٠-٥١) الآية: «جيء به ماضيا على عادة الله في أخباره». وقال فخر الدين في تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ﴾(المائدة:١٠٩) من سورة العقود: «عادة هذا الكتاب الكريم أنه إذا ذكر أنواعا كثيرة من الشرائع والتكاليف أتبعها إما بالإلهيات وإما بشرح أحوال الأنبياء وأحوال القيامة ليصير ذلك مؤكدا لما تقدم ذكره من التكاليف والشرائع».

وقد استقريتُ بجُهدي عادات كثيرة في اصطلاح القرآن سأذكرها في مواضعها، ومنها أن كلمة هؤلاء إذا لم يَرِدْ بعدَها عطف بيان يبين المشار إليهم فإنها يُراد بها المشركون من أهل مكة كقوله تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ﴾(الزخرف: ٢٩) وقوله:﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾(الأنعام: ٨٩) وقد استوعب أبو البقاء الكفوي[٤٦] في كتاب الكليات في أوائل أبوابه كليات مما ورد في القرآن من معاني الكلمات، وفي الإتقان للسيوطي[٤٧] شيء من ذلك.

---

(٤٦) أبو البقاء الكفوي [١٠٩٤هـ، ١٦٨٣م] صاحب الكليات. وهي من أهم الموسوعات في المصطلحات.

(٤٧) السيوطي، جلال الدين، عبد الرحمن بن أبي بكر [٨٤٩- ٩١١هـ، ١٤٤٥-١٥٠٥م] عالم موسوعي، وإمام حافظ، ومؤرخ وأديب، كان مؤسسة لجمع وتصنيف العلوم. من آثاره: [الإتقان في علوم القرآن] و[الأشباه والنظائر] و[الإكليل في استنباط التنزيل] و[تاريخ الخلفاء] و[ترجمان القرآن] و[تفسير الجلالين] و[جمع الجوامع].

وقد استقريتُ أنا من أساليب القرآن أنه إذا حكى المحاورات والمجاوبات حكاها بلفظ قال دون حروف عطف، إلا إذا انتقل من محاورة إلى أخرى، انظر قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ إلى قوله: ﴿أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ﴾ (البقرة: ٣٠- ٣٣)

وأما الجهة الثالثة من جهات الإعجاز وهي ما أودعه من المعاني الحكمية والإشارات العلمية فاعلموا أن العرب لم يكن لهم علم سوى الشعر وما تضمنه من الأخبار: قال عمر بن الخطاب: «كان الشعر علمَ القوم ولم يكن لهم علمٌ أصحُّ منه».

إن العلم نوعان: علم اصطلاحي وعلم حقيقي، فأما الاصطلاحي فهو ما تواضع الناس في عصر من الأعصار على أن صاحبه يعد في صف العلماء، وهذا قد يتغير بتغير العصور ويختلف باختلاف الأمم والأقطار، وهذا النوع لا تخلو عنه أمة.

وأما العلم الحقيقي فهو معرفة ما بمعرفته كمال الإنسان، وما به يبلغ إلى ذروة المعارف وإدراك الحقائق النافعة عاجلا وآجلا، وكلا العلمين كمال إنساني ووسيلة لسيادة أصحابه على أهل زمانهم، وبين العلمين عموم وخصوص من وجه. وهذه الجهة خلا عنها كلام فصحاء العرب؛ لأن أغراض شعرهم كانت لا تعدو وصف المشاهدات والمتخيلات والافتراضات المختلقة ولا تحوم حول تقرير الحقائق وفضائل الأخلاق التي هي أغراض القرآن، ولم يقل إلا صدقا كما أشار إليه فخر الدين الرازي.



وقد اشتمل القرآن على النوعين، فأما النوع الأول فتناوله قريب لا يحتاج إلى كد فكر ولا يقتضي نظرا فإن مبلغ العلم عندهم يومئذ علوم أهل الكتاب ومعرفة الشرائع والأحكام وقصص الأنبياء والأمم وأخبار العالم، وقد أشار إلى هذا القرآنُ بقوله: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾(الأنعام: ١٥٥- ١٥٧) وقال: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ﴾ (هود: ٤٩) ونحو هذا من محاجة أهل الكتاب. ولعل هذا هو الذي عناه عياض بقوله في الشفاء: "ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة والأمم البائدة والشرائع الداثرة مما كان لا يعلم القصة منه إلا الفذ من أحبار أهل الكتاب الذي قضى عمره في تعلم ذلك فيورده النبي ﷺ على وجهه فيعترف العالم بذلك بصحته وصدقه كخبر موسى مع الخضر، ويوسف وإخوته، وأصحاب الكهف، وذي القرنين، ولقمان" إلخ كلامه، وإن كان هو قد ساقه في غير مساقنا بل جاء به دليلا على الإعجاز من حيث علمه به ﷺ مع ثبوت الأُمِّيَّة، ومن حيث محاجتُه إياهم بذلك. فأما إذا أردنا عد هذا الوجه في نسق وجوه الإعجاز فذلك- فيما نرى- من جهة أن العرب لم يكن أدبهم مشتملا على التاريخ إلا بإشارات نادرة، كقولهم: دِرع عاديَّة، ورمح يَزَنِيَّة، وقول شاعرهم:

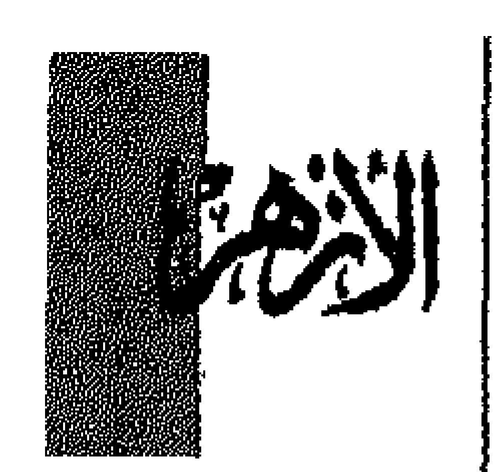
«أحلام عادٍ وأجسامٌ مُطَهَّرَةٌ»

وقول آخر:

تراه يطوف الآفاق حرصا ليأكل رأس لقمان بن عاد

ولكنهم لا يأبهون بذكر قصص الأمم التي هي مواضع العبرة، فجاء القرآن بالكثير من ذلك تفصيلا كقوله: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾ (الأحقاف: ٢١) وكقوله: ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ (فصلت: ١٣) ولهذا يقل في القرآن التعرض إلى تفاصيل أخبار العرب لأن ذلك أمر مقرر عندهم معلوم لديهم، وإنما ذكر قليل منه على وجه الإجمال على معنى العبرة والموعظة بخبر عاد وثمود وقوم تبع.

وأما النوع الثاني من إعجازه العلمي فهو ينقسم إلى قسمين: قسم يكفي لإدراكه فهمه وسمعه، وقسم يحتاج إدراك وجه إعجازه إلى العلم بقواعد العلوم فينبلج للناس شيئا فشيئا انبلاج أضواء الفجر على حسب مبالغ الفهوم وتطورات العلوم، وكِلا القسمين دليل على أنه من عند الله لأنه جاء به أُمِّي في موضع لم يعالج أهله دقائق العلوم، والجائي به ثاوٍ بينهم لم يفارقهم. وقد أشار القرآن إلى هذه الجهة من الإعجاز بقوله تعالى في سورة القصص: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٤٩) فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ (القصص: ٤٩، ٥٠) ثم إنه ما كان قصاراه مشاركة أهل العلوم في علومهم الحاضرة، حتى ارتقى إلى ما لم يألفه وتجاوز ما درَسُوه وألِفُوه.



قال ابن عرفة[48] عند قوله تعالى: ﴿ تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ ﴾ (آل عمران: ٢٧) في سورة آل عمران: "كان بعضهم يقول: إن القرآن يشتمل على ألفاظ يفهمها العوام وألفاظ يفهمها الخواص وعلى ما يفهمه الفريقان ومنه هذه الآية فإن الإيلاج يشمل الأيام التي لا يدركها إلا الخواص والفصول التي يدركها سائر العوام". أقول: وكذلك قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ ﴾ (الأنبياء: ٣٠)

فمن طرق إعجازه العلمية أنه دعا للنظر والاستدلال، قال في الشفاء: "ومنها جمعه لعلوم ومعارف لم تعهد للعرب، ولا يحيط بها أحد من علماء الأمم، ولا يشتمل عليها كتاب من كتبهم فجمع فيه من بيان علم الشرائع، والتنبيه على طرق الحجة العقلية، والرد على فرق الأمم ببراهين قوية وأدلة كقوله:

﴿ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ ﴾ (الأنبياء: ٢٢) وقوله: ﴿ أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ ﴾ (يس: ٨١).

ولقد فتح الأعين إلى فضائل العلوم بأن شبه العلم بالنور وبالحياة كقوله: ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا ﴾(يس: ٧٠) وقوله: ﴿يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ ﴾ (البقرة: ٢٥٧) وقال: ﴿ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا

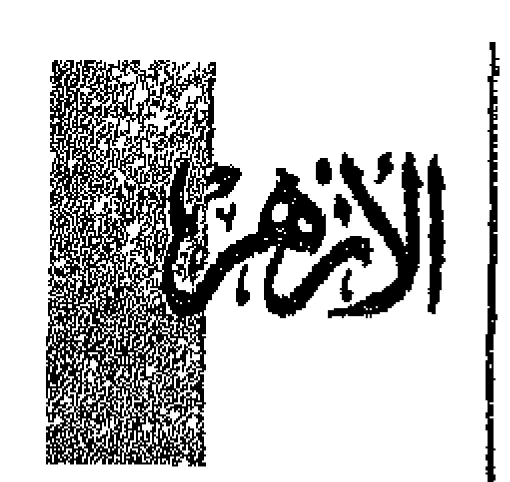
---

(٤٨) ابن عرفة، الكندي، علاء الدين، علي بن المظفر بن إبراهيم [٦٤٠- ٧١٦هـ، ١٢٤٢- ١٣١٦م] أديب وشاعر وعارف بالقراءات. من آثاره: [التذكرة الكندية] في خمسين جزءًا، وديوان شعر في ثلاثة مجلدات.

ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴾(العنكبوت : ٤٣) وقال : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(الزمر : ٩) .

وهذا النوع من الإعجاز هو الذي خالف به القرآن أساليب الشعر وأغراضه مخالفة واضحة. هذا والشاطبي(٤٩) قال في الموافقات : "إن القرآن لا تحمل معانيه ولا يتأول إلا على ما هو متعارف عند العرب" ولعل هذا الكلام صدر منه في التقصي من مشكلات في مطاعن الملحدين اقتصادًا في البحث وإبقاء على نفيس الوقت ، وإلا فكيف ينفى إعجاز القرآن لأهل كل العصور ، وكيف يقصُر إدراك إعجازه بعد عصر العرب على الاستدلال بعجز أهل زمانه إذ عجزوا عن معارضته ، وإذ نحن نسلم لهم التفوق في البلاغة والفصاحة ، فهذا إعجاز إقناعي بعجز أهل عصر واحد ولا يفيد أهلَ كل عصر إدراكُ طائفة منهم لإعجاز القرآن. وقد بيَّنتُ نقض كلام الشاطبي. وقد بدت لي حجة لتعلق هذه الجهة الثالثة بالإعجاز ودوامِه وعمومِه وهي قوله ﷺ في الحديث الصحيح : "ما من الأنبياء نبي إلا أوتي- أو أُعْطِيَ- من الآيات ما مثلُه آمَنَ عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيتُ وحيًا أوحاه الله إليَّ وإني أرجو أن أكون أكثرَهم تابعا يوم القيامة" ففيه نكتتان غفل عنهما شارحوه : الأولى أن قوله ما مثله آمن عليه البشر اقتضى أن كل نبي جاء بمعجزة هي إعجاز في أمر خاص كان قومُه أَعجبَ به وأعجز عنه ، فيؤمنون على مثل تلك المعجزة. ومعنى (آمن

(٤٩) الشاطبي ، أبو إسحاق ، إبراهيم بن موسى [٧٩٠هـ، ١٣٨٨م] محدث وفقيه وأصولي ولغوي ومفسر للقرآن الكريم. صار علما على مقاصد الشريعة الذي بلوره في كتابه [الموافقات].



عليه) أي لأجله وعلى شرطه ، كما تقول : على هذا يكون عملنا أو اجتماعنا ، الثانية : أن قوله (وإنما كان الذي أوتيت وحيًا) اقتضى أن ليست معجزته من قبيل الأفعال كما كانت معجزات الرسل الأولين أفعالا لا أقوالًا ، كقلب العصا وانفجار الماء من الحجر ، وإبراء الأكمه والأبرص ، بل كانت معجزته ما في القرآن من دلالة على عجز البشر عن الإتيان بمثله من جهتي اللفظ والمعاني ، وبذلك يمكن أن يؤمن به كل من يبتغي إدراك ذلك من البشر وبتدبره ويفصح عن ذلك تعقيبه بقوله : (فأرجو أن أكون أكثرَهم تابعا) إذ قد عُطف بالفاء المؤذنة بالترتيب ، فالمناسبة بين كونه أوتي وحيًا وبين كونه يرجو أن يكون أكثرهم تابعا لا تنجلي إلا إذا كانت المعجزة صالحة لجميع الأزمان حتى يكون الذين يهتدون لدينه لأجل معجزته أممًا كثيرين على اختلاف قرائحهم فيكون هو أكثر الأنبياء تابعًا لا محالة ، وقد تحقق ذلك لأن المعنيَّ بالتابع التابعُ له في حقائق الدين الحق لا اتباع الادعاء والانتساب بالقول . ولعل الرجاء متوجه إلى كونه أكثر من جميعهم تابعًا أي أكثر أتباعًا من أتباع جميع الأنبياء كلهم ، وقد أُغفِل بيانُ وجه التفريع في هذا اللفظ النبوي البليغ .

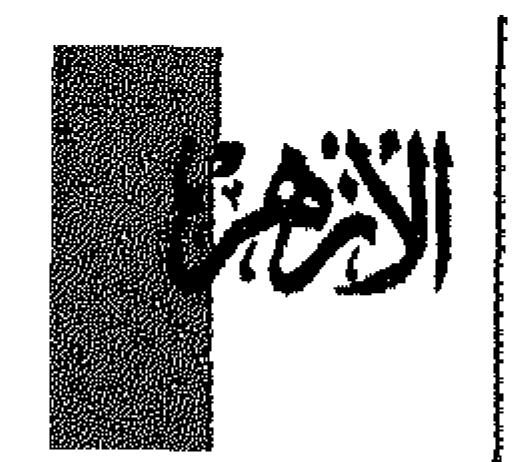
وهذه الجهة من الإعجاز إنما تثبت للقرآن بمجموعه أي مجموع هذا الكتاب ، إذ ليست كل آية من آياته ولا كل سورة من سوره بمشتملة على هذا النوع من الإعجاز ، ولذلك فهو إعجاز حاصل من القرآن وغير حاصل به التحدي إلا إشارة نحو قوله :

﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾

(النساء: ٨٢)

وإعجازه من هذه الجهة للعرب ظاهر: إذ لا قِبَل لهم بتلك العلوم كما قال الله تعالى ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا﴾ (هود: ٤٩) وإعجازه لعامة الناس أن تجيء تلك العلوم من رجل نشأ أمِّيًا في قوم أمّيين، وإعجازه لأهل الكتاب خاصة إذ كان يُنبئهم بعلوم دينهم مع كونه أميًا، ولا قِبَل لهم بأن يدَّعوا أنهم علَّموه لأنه كان بمرأى من قومه في مكة بعيدًا عن أهل الكتاب الذين كان مستقرهم بقرى النضير وقريظة وخيبر وتيماء وبلاد فلسطين، ولأنه جاء بنسخ دين اليهودية والنصرانية، والإنحاء على اليهود والنصارى في تحريفهم فلو كان قد تعلم منهم لأعلنوا ذلك وسجلوا عليه أنه عقهم حق التعليم.

وأما الجهة الرابعة وهي الإخبار بالمغيبات فقد اقتفينا أثر من سلفنا ممن عد ذلك من وجوه الإعجاز اعتدادًا منا بأنه من دلائل كون القرآن منزلا من عند الله، وإن كان ذلك ليس له مزيد تعلق بنظم القرآن ودلالةِ فصاحته وبلاغته على المعاني العليا، ولا هو كثير في القرآن، وسيأتي التنبيه على جزئيات هذا النوع في تضاعيف هذا التفسير إن شاء الله. وقد جاء كثير من آيات القرآن بذلك، منها قوله: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ الآية (الروم: ١، ٢) روى الترمذي في تفسيرها عن ابن عباس قال: كان المشركون يحبون أن يظهر أهل فارس على الروم لأنهم وإياهم أهل أوثان، وكان المسلمون يحبون أن يظهر الروم لأنهم أهل



كتاب فذكره أبو بكر لرسول الله فنزل قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ (الروم: ١- ٤) فخرج أبو بكر يصيح بها في نواحي مكة، فقال له ناس من قريش: أفلا نراهنك على ذلك؟ قال: بلى. وذلك قبل تحريم الرهان، فلما كانت السنة السابعة ظهرت الروم على فارس وأسلم عند ذلك كثير من قريش.

وقوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ﴾ (النور: ٥٥)

وقوله: ﴿لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ (النحل: ٨) فما حدث بعد ذلك من المراكب منبأٌ به في هذه الآية.

وقوله: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا﴾ (الفتح: ١) نزلت قبل فتح مكة بعامين. وقوله: ﴿لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَۖ﴾ (الفتح: ٢٧) وأعلن ذلك الإعجازَ بالتحدي به في قوله تعالى في شأن القرآن ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَن تَفۡعَلُواْ﴾ (البقرة: ٢٣-٢٤) فسجل أنهم لا يفعلون ذلك أبدا وكذلك كان، كما بيَّناه آنفا في الجهة الثالثة.

وكأنك بعد ما قررناه في هذه المقدمة قد صرت قديرا على الحكم فيما اختلف فيه أئمة علم الكلام من إعجاز القرآن للعرب هل كان بما بلغه من منتهى الفصاحة والبلاغة وحسن النظم وما احتوى عليه من النكت والخصوصيات التي لا تقف بها عدة، ويزيدها النظر مع طول الزمان جدة، فلا تخطر ببال ناظر من

العصور الآتية نكتة أو خصوصية إلا وجد آيات القرآن تتحملها بحيث لا يمكن إيداع ذلك في كلام إلا لِعَلَّام الغيوب وهو مذهب المحققين، أو كان الإعجاز بصرف الله تعالى مشركي العرب عن الإتيان بمثله وأنه لولا أن الله سلبهم القدرة على ذلك لأمكن أن يأتوا بمثله لأنه مما يدخل تحت مقدور البشر، ونسب هذا إلى أبي الحسن الأشعري وهو منقول في شرح التفتزاني على المفتاح عن النظَّام وطائفة من المعتزلة، ويسمى مذهب أهل الصرفة، وهو الذي قال به ابن حزم في كتابه في الملل والنحل.

والأول هو الوجه الذي اعتمده أبو بكر الباقلاني في كتابه إعجاز القرآن، وأبطل ما عداه بما لا حاجة إلى التطويل به، وعلى اعتباره دوَّن أئمة العربية علم البلاغة، وقصدوا من ذلك تقريب إعجاز القرآن على التفصيل دون الإجمال، فجاءوا بما يناسب الكامل من دلائل الكمال.[٥٠]

(٥٠) [تفسير التحرير والتنوير]- المقدمة العاشرة- الجزء الأول، ص ١٠١-١٣٠.

-٤-

العلامة الأستاذ/ محمد فريد وجدي
رد شبهات على القرآن الكريم[٥١]

لم تعن أمة في العالم بكتاب سماوي أو أرضي عناية الأمة الإسلامية بالقرآن الكريم. ولم يُحط كلامٌ إلهيٌ أو بشريٌّ بمثل ما أحيطت به آياته من وسائل الحفظ والرعاية والتقديس. فقد كانت تنزل الآية منها أو الآيات فتنتقش في صدر النبي ﷺ، فيتلوها ساعة نزولها على الآلاف من المحيطين به، فيسارعون إلى استظهارها ليتلوها تعبدًا ويصلوا بها، ولا يكتفي النبي ﷺ بذلك فيأمر كتابا له بكتابتها، ويحتفظ بها في داره مع أمثالها.

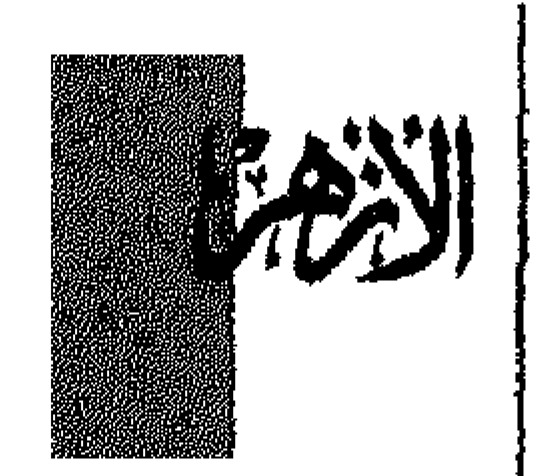
وقد تم نزول القرآن، فكان يحفظه كله رسول الله وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي، ومئات كثيرة غيرهم، لا يسقطون منه حرفًا. فلما انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى، وخلفه أبو بكر بادر عمر فطلب إليه أن يأمر بتدوين القرآن في كتاب، حفظًا له من النسيان والتحريف، فكان أبو بكر يأبى ذلك قائلًا: إن شيئًا لم يفعله النبي ﷺ لا أفعله أنا. فلما حدثت وقعة اليمامة وقتل فيها من حفّاظ القرآن عدد عديد أدرك أبو بكر أصالة رأي عمر، فأوعز بجمع القرآن، فحشر حفاظه وأخرج إليهم المخطوطات

(٥١) نقلا عن المجلد الثامن، من مجلة الأزهر، سنة ١٣٥٦هـ، ص ٤٠٤، وما بعدها.

التي عملت على عهد الرسول، وأمرهم بتدوينه ونشره بين الناس، فقاموا بذلك على أتم وجه. ولم يرتفع صوتٌ إذ ذاك بأن آية سقطت منه أو كلامًا زيد فيه، والدين في عنفوان قوته، وحفاظ الفرقان كثيرون، ومنهم الخليفة نفسه، ولم تمض على وفاة النبي ﷺ بضعة أشهر.

ثم مات أبو بكر بعد أن مكث في الخلافة نحو سنتين، وقام بالأمر بعده عمر، ولبث يدبر شئون الدولة نحو إحدى عشرة سنة، فتح في خلالها سورية والعراق وبلاد الفرس ومصر وجزءًا من شمال أفريقيا. وانتشرت المصاحف المكتوبة على عهده، وأكثر الناس من حفظ القرآن، فلم ينبس أحد ببنت شفة اعتراضًا على زيادة شيءٍ أو نقصه في القرآن، ولا يخفى على أحد شدة الفاروق في الدين وغيرته عليه.

فلما توفي رضي الله عنه أسندت الخلافة إلى عثمان بن عفان، وكان للمسلمين إذ ذاك إمبراطورية مترامية الأطراف، ودخل في الإسلام ملايين من الناس، واحتاج المسلمون إلى المصاحف فكانوا يكتبونها بأيديهم لعدم وجود مطابع إذ ذاك. ولا تخفى على أحد أخطاء النسخ، فإن الناسخ مهما كان حريصًا على تحري الأصل تبدر منه أخطاء لا يفطن إليها، ولا سيما في عهد لم تضبط فيه قواعد الكتابة، ولم يوجد في أحرفها نقط، ولا لألفاظها علامات لضبط النطق بها، وهو ما يعرف الآن بالشكل، فحدث في قراءات الناس خبط، ورفع الأمر إلى أمير المؤمنين، فأمر القراء تحت رياسة زيد بن ثابت– وهو الذي كان عهد إليه أبو



بكر بجمع المصحف- بكتابة أربعة مصاحف ونشرها في الآفاق، وأمر باتخاذها مرجعا للضبط وإحراق ما عداها.

فعل عثمان هذا وهو بين ظهراني كبار الصحابة، وفيهم علي ابن أبي طالب وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله والزبير ابن العوام وعبد الله بن عباس وغيرهم من الذين قالوا لعمر بن الخطاب: "لو رأينا فيك اعوجاجًا لقومناه بسيوفنا"، فما ظنك باعوجاج يُرتكب ضد القرآن؟

يَهُول بعضَ الناس أن عثمان أمر بإحراق ما يخالف مصحفه من المصاحف المنسوخة، وأي شيء في هذا؟ أليس الإحراق وسيلة لملاشاة النسخ المحرفة تلجأ إليها الحكومات إلى اليوم؟ ألم تأمر الحكومة المصرية بإحراق عشرات الألوف من نسخ القرآن لم يحسن مصححو مطبعتها تصحيحها، فجاءت مشوبة بأخطاء كثيرة، فعمدت إلى هذه الوسيلة في الزمن الذي نحن فيه؟

هل كان لعثمان من السلطان ما يستطيع معه أن يغتصب مصاحف كبار الصحابة المعاصرين له فيحرقها، ويبدلهم منها نسخا أخرى فيها ما يعتقدون أنه تحريف؟

أرأيت كيف تثور البراكين فتغمر في حممها المدن، وتحرق بموادها الملتهبة الحرث والنسل، وكيف تعصف الأعاصير الهوجاء فتدك كل بناء، وكيف تهيج الزلازل فتجعل عالي الأرض سافلها، وتدك شم الجبال؟ كل هذا كان أهون منظرًا إذا حدّث جبار نفسه بتحريف القرآن في أمة تعتبره روحها المدبر،

ودستورها المهيمن، ووسيلتها التي تصل بها إلى الله، وهم رجال وغى ومغاوير كفاح، يعتبرون الموت في سبيل الدين حياة دونها كل حياة؟

وإذا سلمنا جدلًا بأن مصحف عثمان كان يخالف النسخ الصحيحة في بعض المواطن، فلم يلبث عثمان في الخلافة إلا نحو اثنتي عشرة سنة، وجاء بعده خليفة من أعلى الخلفاء كعبًا في الدين والورع والمحافظة على سيرة النبي ﷺ، فلِم لم يبطل مصحف عثمان، وينسخ صورة صحيحة للقرآن وقد كان يحفظه كله ولديه مصحف يتلوه فيه؟

إن مسألة الزيادة في كتاب أو النقص منه لا يعقل أن تحصل في كتاب كالقرآن تتعبد أمة برمتها بتلاوته، وتصلي بآياته، وتفصل في جميع شئونها بأحكامه ومقرراته. وليس لديها كتاب غيره، ولم يوكل أمره إلى جماعة أو طبقة من الناس تتحكم فيه برأيها، ولكنه كان حقّا مشاعًا للناس كافة، يتولونه بالحفظ والرعاية. فمثل هذا الكتاب إن اعتراه تبديل أو تحريف كانت تتعدد نسخه، أو تتخالف آياته، ولا تستطيع أية حكومة مستبدة أن تبيد جميع ما يخالف هواها من صوره. والحكومة الإسلامية لم تكن استبدادية، وقد تداول الخلافة في صدر الإسلام أربعة رجال أقروا كلهم صورة واحدة من القرآن، ولم يرد عنهم أن بعضهم أبطل نسخ بعض، ولا ورد عن آلاف الصحابة أن واحدًا منهم أبرز صورة زعم أنها أصح من غيرها. فهل تآمرت الأمة الإسلامية كلها على التسامح في تحريف كتابها إلى هذا الحد ومكانه منها كما عرفت؟



حدثنا التاريخ أن الأناجيل قد تعددت حتى بلغت أكثر من سبعين، فأوعز الإمبراطور قسطنطين[٥٢] إلى الكهنة أن يرتضوا صورة واحدة له، فاجتمعوا في مؤتمر وقرروا أن يعتمدوا أربع صور منه هي الموجودة إلى اليوم. فهل حدثنا تاريخ المسلمين عن مثل هذا التعدد لصور القرآن؟

يقولون نعم، وهي التي أمر بإحراقها عثمان. نقول إن التي أمر بإحراقها عثمان هي النسخ التي أصابتها آفة الاستنساخ، وهذه الآفة لا تزال موجودة إلى يومنا هذا، فما من كتاب يعرض للاستنساخ إلا وقعت فيه أخطاء جمة، لا دواء لها إلا تحرير نسخة صحيحة للنقل منها وإحراق ما عداها، كما حدث على عهد عثمان، وكما يحدث في كل زمان ومكان.

وقد رأيت استحالة استبداد عثمان بالقرآن على عهد كان أكثر أصحاب رسول الله ﷺ أحياء، وكانوا أشد ما يكونون اشتغالا بتلاوة القرآن وعملًا به. وله حفاظ منتشرون في جميع أرجاء المملكة الإسلامية، فكيف يعقل أن يكون عثمان قد تعمد تحريف الكتاب في هذه البيئة الغاصة بحفظته وقارئيه، وكلهم يفدونه بأرواحهم، وينافحون عن حماه بأشد مما ينافحون عن أنفسهم وأعراضهم؟

---

(٥٢) هو قسطنطين الكبير [٢٨٠-٣٣٧م] الذي عقد في عهده مجمع نيقية المسكوني سنة ٣٢٥م.

الدواعي التي تدفع لتحريف الكتب السماوية:

إذا وقع التحريف في كتاب سماوي فلا يمكن أن يكون ذلك إلا بواحد من أربعة أسباب أو بأكثر من سبب منها، وهي:

(١) ضياع أصل الكتاب.

(٢) غلو في الدين يحمل على تأليه صاحب الدعوة، أو رفع درجة أسرته، وأصحابه وحفظة دينه إلى ما فوق مستوى الناس، ومنحهم حقوقًا وامتيازات ليتمكنوا بها من تسخير النفوس لإراداتهم.

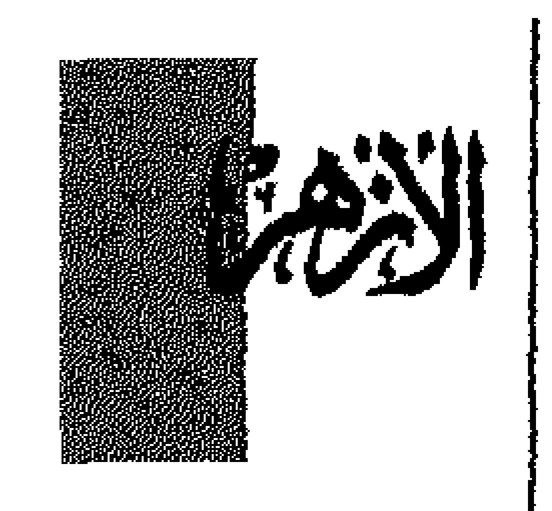
(٣) النص على حصر السلطان الروحي في طائفة معينة، أو تحديد شكل الحكومة وجعلها ثيوقراطية تحت تصرف رجال الدين.

(٤) تعمد إفساد الدين بالنقص من كتابه والزيادة عليه، بحيث يفضي ذلك إلى زهد النفوس فيه، وكراهتهم له.

هذه هي الدواعي التي تحمل على تحريف الكتب السماوية، وكلها ممتنعة بالنسبة للقرآن.

امتناع السبب الأول من أسباب التحريف:

أما امتناع السبب الأول، فإن أصل القرآن كان مكتوبًا ومحفوظًا في دار النبي ﷺ، وكان مئات من الناس يحفظونه، فلما أريد جمعه أتوا بهذه المخطوطات وقابلها الكتاب بما حفظوه في صدورهم وجعلوا ما كتبوه مصحفًا، فاستنسخه ألوف من الناس



وحفظوه ونقلوه إلى جميع عواصم الملك الإسلامي. فهل توجد في العالم وسيلة تفوق هذه الوسيلة للتحقق من مطابقة صورة كتاب لأصله؟ اللهم لا.

أين هذا مما حدث لما سبقه من الكتب؟ فقد ضاعت أصولها، وشتت أهلها في الأرض، ومزقوا كل ممزق. فالتوراة ضاع أصلها الأول ثم جمعت أسفارها من هنا وهناك، واشتد اختلاف الناس فيها حتى إن توراة النصارى تخالف توراة اليهود مخالفة جوهرية.

وكذلك كان حال الأناجيل، فقد ضاعت أصولها ثم نقلت عن ترجمة يونانية وجدت لها بعد آماد طويلة.

فهذه الكتب يعترف أهلها أنفسهم بأنه قد لحقها ما لحقها، ولكنهم يعتذرون عنه بأنه لم يعد على الروح التي أودعها مجموعها. فقد جاء في كتاب (محاورة في الوحي) قول مؤلفه: «وليس من ضرورة للاعتقاد بأن جميع ما دار من مخاطبة الله للإنسان، قد دون في الأسفار: (أولًا) لأن البرهان على ذلك متعذر. و(ثانيًا) لأنه يكفي الاعتقاد بأنه دوّن ما فيه كفاية. وهذا الرأي المعروف برأي «الاقتصاد في الوحي» يجلو لنا الحقيقة».

وقال في موضع آخر من ذلك الكتاب:

«إن من تعاليم التوراة ما لا يجوز مسه لئلا يفسد جوهرها، ومنها ما يسبب مسه ضررا باختلاف أهمية ذلك الجزء. ومنها ما لا يؤثر فيه المس أبدا حتى إنه وإن حذفت كلماته أو جمله يبقى

سليمًا صحيحًا. ومن هذا القبيل الكلمات والعبارات التي سقطت في أثناء نسخ التوراة».

ولكنا معشر المسلمين لا نقول بنظرية «الاقتصاد في الوحي»، ونرى أن كل ما أوحي إلى الرسول مما أمر بتلاوته يجب أن يكون ماثلا في المصحف. ولدينا الدليل القاطع على أن كل ما أوحاه الله إليه قد دوِّن وحفظ سليمًا من كل تحريف إلى يومنا هذا، على أسلوب من التدقيق والضبط لا يعقل أن يكون أبلغ منه في عالم النقل الصحيح.

امتناع السبب الثاني للتحريف:

وأما امتناع السبب الثاني لتحريف القرآن، وهو الغلو في الدين، فلا يحتاج إلى دليل، فإن نصوص الكتاب تنطق صراحة بالنهي عن الغلو في الدين. قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾ (النساء: ١٧١)

ولم يكتف الكتاب بهذا بل قطع الذرائع دون كل محاولة للغلو، فذكر أن المرسلين رجال لا يمتازون عن سواهم إلا بالوحي:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ﴾

(النحل: ٤٣)

وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾ (الكهف: ١١٠)



وقــال تـعــالـى: ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ (الإسراء: ٩٣) .

فالكتاب كما ترى لم يدع متسربًا للغلو في ذات الرسول من أية ناحية من النواحي فظل أكرم نعت له في صلاة المسلمين أنه عبد الله ورسوله.

وأما عن أسرة النبي ﷺ فلا توجد آية واحدة في الكتاب تميزهم عن الناس. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «اعملي يا فاطمة فإني لا أغني عنكِ من الله شيئًا» وقال: «والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها».

وقد أفاد النبي ﷺ من نفسه، فإنه لما شعر بدنو أجله جمع الناس وقال لهم: من كنت قد أسأت إليه فليأت وليقتص مني.

ولما شكا يهودي عليا كرم الله وجهه، دعاه عمر أمير المؤمنين ليقاضيه أمام خصمه، فلما أقبل قال له: اجلس يا أبا الحسن. فغضب علي، فسأله عمر: أغضبت لمساواتك بخصمك؟ قال: لا، ولكن لتمييزك إياي عنه بتكنيتي والتكنية تعظيم!

أظن أنه لا يوجد في تاريخ العالم ما هو أبلغ من هذا في احترام مبدأ المساواة في الحكم، وفي نكران الذات أمام هذا المبدأ.

فإذا كانت هذه المساواة واجبة في حق بنت رسول الله وابن عمه، فمن تظن أن ينال هذه الحظوة بعدهما؟

وقس على هذا معاملة العلماء، فلم يرفع أحدهم على عامة

الناس في حكم، ولم يستثن من تكليف بدني أو مالي. بل قد رفعت الدعاوى على أمراء المؤمنين من صغار رعاياهم أمام القضاة فلم يحاربوهم وحكموا عليهم.

امتناع السبب الثالث للتحريف:

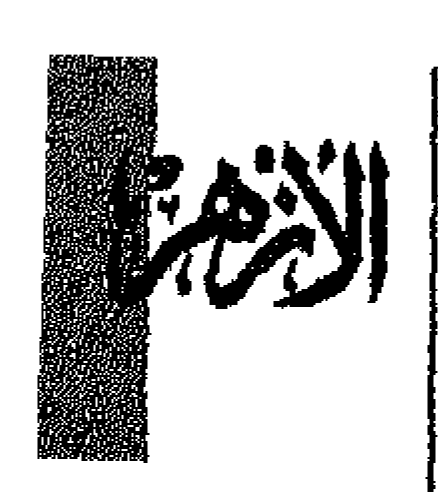
السبب الثالث لتحريف الكتب السماوية هو النص على حصر السلطان الروحي في طائفة معينة من الأمة، أو في جعل الحكومة ثيوقراطية تحت تصرف رجال الدين.

هذا السبب لا ظل له في الإسلام؛ لأن الكتاب نص على خلافه في غير موطن منه، فجاءت حكومة المسلمين ديموقراطية حرة، قال عليه الصلاة والسلام: «اسمع وأطع ولو لعبد حبشي كأن رأسه زبيبة».

وقد ولَّى النبيُّ بلالًا على المدينة وكان مملوكًا حبشيّا، وفيها أجلاء الصحابة وكبار رجالات الأمة.

والإسلام لا يعترف بوجود طائفة من الأمة يجب أن تُودع السلطان الروحي دون سائر الطوائف، بل ليس في الإسلام سلطان روحي إلا للكتاب والسنة.

لذلك كان الأئمة الأولون الذين يُرجع إليهم في فهم الدين، أكثرهم من الموالي، أي الذين كانوا أرقاء أولاد آباء كانوا أرقاء.



قال العلامة السخاوي(٥٣) في شرح ألفية الحديث للعراقي: إن أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك(٥٤) قال للإمام المحدث الزهري يومًا: "من يسود أهل مكة؟ قال: عطاء(٥٥). قال: بم سادهم؟ قال الزهري: سادهم بالديانة والرواية. قال هشام: نعم، من كان ذا ديانة حقت الرياسة له. ثم سأله الخليفة عن اليمن، فقال الزهري(٥٦): إمامها طاوس(٥٧). وكذلك سأل عن مصر والجزيرة وخراسان والبصرة والكوفة، فأخذ الزهري يعد له أسماء سادات هذه البلاد، وكلما سمَّى له رجلًا كان هشام يسأله: هل هو عربي أم مولى؟ فكان الزهري يقول: مولى، إلى أن أتى

---

(٥٣) السخاوي، شمس الدين محمد [٨٣١- ٩٠٢هـ، ١٤٢٨-١٤٩٧م]. من كبار المؤرخين وعلماء الأدب والحديث، من أشهر آثاره: [الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع]، و[ذيل لتاريخ المقريزي]، [وشرح ألفية الحديث للعراقي]- الحافظ، عبد الرحيم [٨٠٦هـ، ١٤٠٤م]، وللسخاوي: [الألفية] في مصطلح الحديث، و[الألفية] في غريب القرآن الكريم.

(٥٤) هشام بن عبد الملك، [٧١- ١٢٥هـ، ٦٩٠-٧٤٣م]. عاشر الخلفاء الأمويين، حارب البيزنطيين في أوروبا، وبلغت الدولة في عهده أقصى اتساعها.

(٥٥) عطاء بن أبي رباح [٢٧- ١١٤هـ، ٦٤٧-٧٣٢م]. من التابعين وأجلاء الفقهاء، يمني، نشأ بمكة، وكان مفتيها ومحدثها.

(٥٦) الزهري، أبو بكر محمد بن مسلم [٥٨-١٢٤هـ، ٦٧٨- ٧٤٢م] من كبار التابعين، وهو أول من دون الحديث. ولقد كتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله أن يأخذوا عنه الحديث، لأنه أعلم الناس بالسنة، ولد في المدينة واستقر بالشام.

(٥٧) طاوس بن كيسان، أبو عبد الرحمن [٣٣-١٠٦هـ، ٦٥٣-٧٢٤م]. من أكابر التابعين والفقهاء والمحدثين والزهاد، يمني، توفي وهو حاج، وصلى عليه هشام بن عبد الملك، واشتهر مع أبي ذر والثوري بأنهم أكثر الناس تجنبا لمخالطة السلاطين.

على ذكر النخعي[٥٨]، فقال: إنه عربي، فقال هشام: الآن فرجت عني، والله ليسودن الموالي العربَ ويخطبُ لهم على المنابر" !

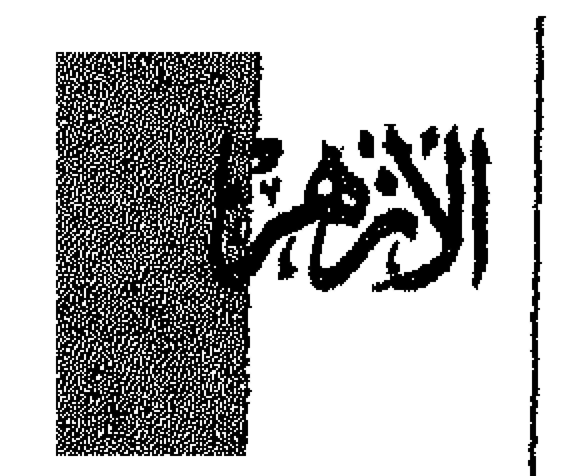
من هنا ترى أن الإسلام لم يهب السلطان الروحي لطائفة من الطوائف، ولكنه دعا إلى العلم وتركه حقًا شائعًا بين المسلمين كافة أحرارهم وأرقائهم، بيضهم وسودهم، فسبق إليه من سبق، فلم يسأل الناس عن أصلهم، وهذا ما ليس له مثيل في أمة غير الأمة الإسلامية.

وقد طبع الله هذا المبدأ السامي بطابع قرآني عالي القدر، فقال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾(الحجرات: ١٣)، فجعل التفاضل بالتقوى لا بالجنس ولا باللون ولا بالانتساب لطائفة من الطوائف. وبذلك سقط السبب الثالث من أسباب التحريف التي عددناها.

السبب الرابع لتحريف الكتب السماوية:

أما السبب الرابع وهو تعمد إفساد الدين بالنقص من كتابه والزيادة فيه، فهذا أكثر امتناعًا بالنسبة للقرآن الكريم من كل الأسباب السابقة، فإن الذين جمعوه من المخطوطات، وقابلوه على محفوظاتهم منه، كلهم من المشهود لهم بالتقوى والصلابة في الدين. ناهيك بقوم آثروا حفظ الكتاب كله في صدورهم. فهذا الجهد الجاهد لا يكون إلا من نفوس استوعب حب الدين

(٥٨) النخعي، إبراهيم بن يزيد [٤٦-٩٦هـ، ٦٦٦-٧١٥م]. من أكابر التابعين وأئمة الفقه وأصحاب المذاهب الفقهية وحفاظ الحديث.



كل شعورهم، واستولى بجلاله على قلوبهم. فلا يعقل أن يصدر من هؤلاء تحريف للكتاب بقصد إفساده وتزهيد الناس فيه.

ثم إن ما كتبوه عرضوه على أبي بكر وعمر وجميع كبار الصحابة، فلم يروا فيه ما ينكرونه منه، وكلهم كان يحفظه أو يتلوه بدون انقطاع.

فلما استكتب عثمان منه أربع نسخ صحيحة ليوزعها في الآفاق، تحرى القراء أن يكون مطابقًا لمصحف أبي بكر، وكان ذلك تحت رقابة أصحاب رسول الله ﷺ.

ولم يظهر في ذلك العهد ما يخالف مصحف عثمان، وتولى الخلافة بعده علي بن أبي طالب، فلم يحدث أقل تغيير فيه، ولو كان ينقص أو يزيد حرفا لما أغضى عنه الإمام ولا أغضى عنه أحد من الذين أحدثوا الثورة على عثمان.

نسخ الأحكام ونسخ تلاوة بعض الآيات:

نزل القرآن نجوما على حسب الحوادث الطارئة، ولم ينزل دفعة واحدة. ونظرًا لأنه يتولى تأليف أمة جديدة على نظم وأصول نهائية، كانت الحاجة ماسة إلى مسايرة الأطوار التي تدخل فيها، والتدرج معها في جميع الأدوار التي تبلغها في حياتها الاجتماعية.

من هنا كانت الضرورة قاضية بنسخ بعض الأحكام بقصد تخفيفها أو تشديدها على مقتضى الأحوال. واقتضت حكمة الشارع أيضًا أن تبقى تلاوة بعض الآيات الدالة على تلك الأحكام

المنسوخة، وأن ينسخ تلاوة بعضها الآخر. وفي القرآن نسخ لتلاوة بعض الآيات مع بقاء أحكامها معمولًا بها.

وهذه الأمور أرشد إليها النبي ﷺ نفسه، ودون المصحف في عهد أبي بكر مع مراعاتها بالدقة.

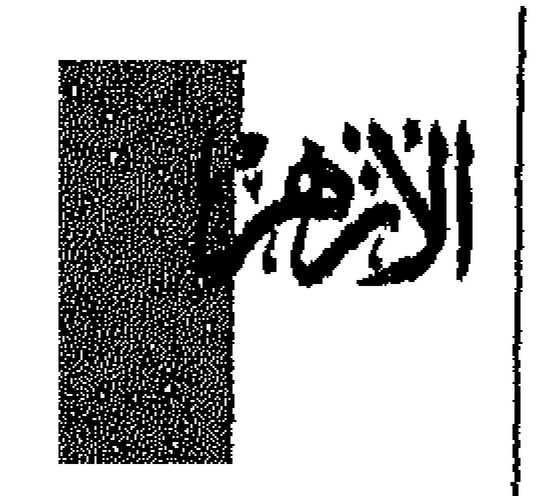
فمن أمثلة نسخ الحكم دون نسخ تلاوة الآية الدالة عليه قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ﴾(البقرة: ٢٤٠).

فقضت هذه الآية بأن مدة تربص المرأة بنفسها بعد موت زوجها يجب أن تكون حولًا كاملًا على نفقة الزوج. فنُسخ هذا الحكم وجعلت مدة التربص أربعة أشهر وعشرا كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾(البقرة: ٢٣٤)

ومن أمثلة نسخ الحكم ونسخ تلاوة الآية الدالة عليه ما روي عن عائشة أن القرآن جاء في الرضاع بعشرٍ معلومات، ثم نسخن بخمسٍ معلومات. فالعشر مرفوعة التلاوة والحكم جميعًا، والخمس مرفوعة التلاوة باقية الحكم.

ومنها ما روي أن سورة الأحزاب كانت بمنزلة السبع الطوال أو أزيد، ثم نسخت تلاوة آيات كثيرة منها.

أما أمثلة الآيات التي نسخت تلاوتها وبقيت أحكامها، فكآية الرجم وهي: «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة نكالا من



الله، والله عزيز حكيم» وما روي من قوله تعالى: «لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى إليهما ثالثًا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب».(٥٩)

فهذه الأمور كلها كانت معلومة عند الصحابة، ومضبوطة إلى حد أنه لم يحدث فيها خلاف. ولو كانت تحتمل أقل خلاف لحدث ولملئت الأسفار بأخباره.

لم يكن كتاب الإسلام محتكرًا في يد طائفة من الطوائف، فيسهل عليها التلاعب به، ولكنه كان حقّا مشاعًا للناس كافة. وقد اختلف المسلمون في كل شيء إلا في هذه المسألة، فلم كان ذلك؟ ألأنهم كانوا أكثر عناية بالأشياء الثانوية منهم بالقرآن، وأنت تعلم أنه كان متعبدهم ودستورهم، بل روحهم التي بها يتحركون؟

أما رأيت إلى أي حد اختلف المسلمون في أحاديث رسولهم، حتى رفضوا منها مئات الألوف باعتبار أنها موضوعة أو ضعيفة، فهل كان المسلمون أشد اعتدادا بأحاديث رسولهم منهم بكلام ربهم؟

---

(٥٩) حول معنى النسخ- في القرآن- هناك خلاف كبير. ومن أراد تحقيق هذا المبحث، ومعرفة معنى النسخ عند القدماء وعند المحدثين، ورأي علماء الأصول، فليرجع إلى كتابنا [حقائق وشبهات حول معنى النسخ في القرآن الكريم]، طبعة القاهرة، دار السلام، ١٤٣١هـ، ٢٠١٠م.

شبهات خصوم الإسلام على القرآن:

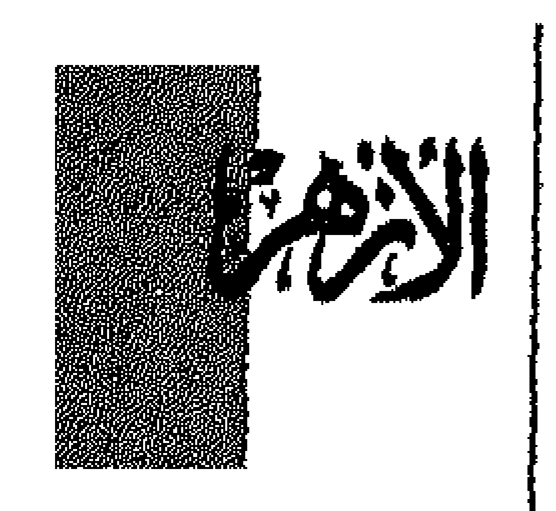
جاء في كتاب (الوحي الجديد) لأحد دعاة بعض الملل قوله في صفحة ٤٤ .

(أولًا) إنه من المستحيل أن يكون القرآن الحالي حاويًا لجميع ما أنزل، بل إنه من المؤكد تاريخيّا أنه قد ذهب منه جانب ليس بقليل.

(ثانيًا) من المستحيل إقامة البرهان على أنه طبق ما نطقت به شفتا محمد تمامًا، بل إنه في آيات عديدة منه اختلافات مدهشة، ولا يعرف إلا الله ما هو النص الصحيح». انتهى.

نقول: أما عن الأمر الأول فإننا معشر المسلمين نعترف بأن المصحف لا يحوي جميع ما أنزله الله على محمد، ولكن جميع ما سمح بأن ينقل في المصاحف ويتلى تعبدًا. فقد علمت في فصل متقدم أن النبي ﷺ نبَّه على أن آيات كثيرة منه قد نسخت تلاوتها فلم تدون. فماذا يكسبه الخصم من وراء إعلانه شيئًا هو عند المسلمين من المعلومات الأولية؟ لعله يريد بذلك أن يؤثر في عقول العامة، ولكن العامة يلجئون عادة إلى علمائهم فيفهمونهم الأمر على وجهه، فتبطل الشبهة، ويبقى عارها لاصقًا بمن أوردها.

وأما عن الأمر الثاني فهو يريد به اختلاف القراءات. وهذه القراءات وجدت على عهد النبي ﷺ فأقرها، وليس فيها ما يوجب اختلافًا في العقائد ولا في الأحكام، وسترى تفصيل ذلك



عند كلامنا على ما أورده منها. وإن شيئًا وجد على عهد صاحب الرسالة فأقره، وعني المسلمون بتدوينه وضبطه، لا يجوز أن يتخذ اليوم شبهة للتشكيك في عبارات القرآن.

هل اختلاف هذه القراءات تمس جوهر العقائد، أو أصول العبادات، أو دستور المعاملات؟

لم يقل أحد ذلك في الإسلام إلى اليوم، ولم يُثِرْ بينهم شقاقًا ولا جدالًا، ولا كان سببًا لِتَشَكُّك أحدٍ ولا لارتداده. فكيف يثار هذا الأمر اليوم على هذا الوجه، ويفهم ذلك الكاتب منه ما لم تفهمه أمة برمتها في مدى أكثر من ثلاثة عشر قرنًا، على شدة عنايتها بالقرآن، وبحث كل صغيرة وكبيرة فيه؟

ويقول كاتب رسالة (الوحي الجديد) في صفحة ٤٥ :

«إننا نعلم تمامًا بشهادة زيد بن ثابت التي لا ريب فيها، أنه لم تدون جميع السور والآيات التي سُمعت من فم محمد، بل إن كثيرًا منها حفظ في صدور الناس، ومرت سنون عديدة قبل أن أمر زيد بتدوينها، نقلًا عن ذاكرة أولئك القراء فكيف تأمن على الحقيقة من ذاكرتهم؟».

ونحن نقول: إن القرآن كان قد كتب كلُّه على عهد رسول الله ﷺ كما سمع من فمه، وإن ما كتب حفظ في داره، وكان مئات من الناس قد حفظوه كله، ومنهم الخلفاء الأربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، فلما لحق رسول الله بالرفيق الأعلى لم تمض إلا

بضعة أشهر حتى دعا أبو بكر القراء وعلى رأسهم زيد بن ثابت وأمرهم أن يدونوا القرآن في مصحف، وسلمهم تلك المخطوطات ليرجعوا إليها إن اختلفوا في شيء.

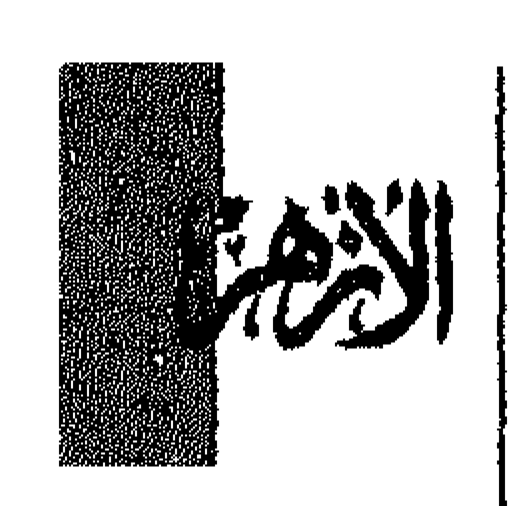
هذا ما شهدت به أمةٌ برمتها، فكيف يقول كاتب الرسالة: إن القرآن لم يكتب كله على عهد النبي ﷺ؟ وما معنى قوله مرت سنون كثيرة قبل أن أُمر زيد بن ثابت بكتابته، ولم تمض عليه غير بضعة أشهر، ولم يحكم أبو بكر الذي كتب القرآن على عهده أكثر من سنتين وأشهرا. فأين هي هذه السنين ويرسل به كشبهة على سلامة القرآن وليس منها في شيء؟

إن التي مرت عليها سنون كثيرة قبل أن تدون هي أحاديث النبي ﷺ، وهي تلي القرآن في الدرجة، ومع ذلك فقد حدث فيها بين العلماء من الاختلاف ما لا يسع المقام ذكره، حرصًا على ألفاظ النبي ﷺ أن تبدل أو يزاد عليها أو ينقص منها، فهل كان حرصهم على الأحاديث النبوية أشد من حرصهم على كلام الله، فيتركوه يحرَّف أمام أعينهم ولا يحدثوا حول هذا التحريف شغبًا ولا اضطرابًا، ويقروه على ما كتب لا يختلفون فيه، ولا يصطخبون حياله؟

هذا أمر لا يسيغه أقل الناس فهمًا، فكيف يسيغه كاتب تلك الرسالة ويرسل به كشبهة على سلامة القرآن وليس منها في شيءٍ؟

وقال في صفحة ٤٧:

«إن ابن مسعود هذا، (وقد نعته بأنه أعلم الناس بالقرآن)، لم



يكن ليعتبر نسخة عثمان صحيحة، وإنه رفض أن يسلمه نسخته ليحرقها، وإنه أشار على أهل العراق ليكتموا نسخهم قائلًا: «يا أهل العراق اكتموا المصاحف التي عندكم وغلقوها». وإنه حذف السورة الأولى (أي الفاتحة) والسورتين الأخيرتين من نسخته، بحجة أن تلك السور ليست من كتاب الله».

نقول هنا: يمكن أن يتساءل متفهم: أي مصلحة للذين جمعوا القرآن أن يضعوا فيه ثلاث سور قصار ليست منه في شيء؟ أرموا بذلك لغرض من الأغراض التي تحمل النفوس السافلة على التحريف وليس فيها ما يشوه جمال القرآن، ولا ما يتناقض والحكمة التي أتى بها؟

وهل يعقل أن يضع المجرمون فاتحة لكتاب، وأن يذيلوه بسورتين صغيرتين، في أمة تتعبد بتلاوة ذلك الكتاب، وفيها ألوف من الرجال الذين حضروا وحيه وكتبوه، وصحبوا رسولهم في جميع أدواره؟

لو كان المدسوس فيه آية من سورة طويلة أو كلمة تقلب المعنى وتوجهه إلى ناحية أخرى، لهان الخطب على العقل، ولكانت الشبهة تحتاج إلى شيءٍ من العلاج، ولكن والمدسوس ثلاث سور صغيرة، في أظهر مكان منه فأمر لا يحتمل النظر، فضلًا عن الدحض.

وهل يعقل أن يحدث مثل هذا الأمر فلا يثير صخبًا، ولا يهيج غضبًا، ولا يستدعي شغبًا، ويمر كأنه لم يكن في أمة دستورها

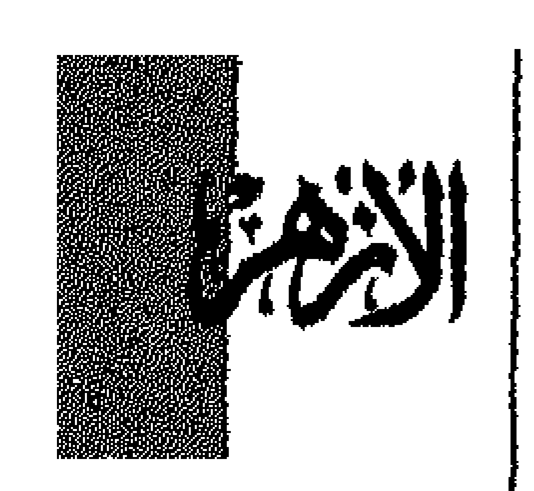
هذا الكتاب وحده، ومتعبدها سوره وآياته؟

وكيف سكت عنه ابن مسعود نفسه، فلم يسمع له فيه زئير يدوي في العالم الإسلامي دوي الرعود القاصفة؟ لعلك تقول: خشي بأس عثمان. فقد قتل عثمان، وابن مسعود حي يرزق، فلِم لم ينبه المسلمين إلى هذه الجناية ويلجأ إلى خليفته ليمحو من المصاحف هذه الزيادة التي ليست منه؟

ما الذي حمل المسلمين، والدين لا يزال في نضرته، وكتابه مرجعهم في جميع شئونهم، ومتعبدهم في صلواتهم، على أن يهملوا قول ابن مسعود ولا يرفعوا به رأسًا؟ ألأنهم ما كانوا يبالون بسلامة القرآن من الزيادة، أم لأنهم كانوا يخافون بطش الذين حرفوه، وقد دالت دولتهم، وتلتها دولة أخرى على رأسها عليٌّ، أقل ما يقال فيها إنها كانت خلافة أجمع المسلمون على أنها كانت راشدة؟

ما هذا الإجماع كله على عدم الاكتراث لقول ابن مسعود، وهو ينبه إلى أمر جلل كان يكفي خيال منه أن يثير فتنة تدع الحليم حيرانًا؟

يقول خصومنا: إن ابن مسعود كتب لأهل العراق أن يحتفظوا بنسخهم، ولا يسلموها لعمال عثمان بحجة أنها أصح من نسخته، وهذا معناه أن ابن مسعود كان بمحل يستطيع فيه أن يعارض أمر أمير المؤمنين، وأن أهل العراق كانوا يصدرون عن رأيه، فهل صدعوا بأمره، واحتفظوا بنسخهم؟ إن قيل: نعم، فأين



هي؟ ولِم لم يرو لنا التاريخ كلمة عن مخالفتها لنسخة عثمان؟ وإن قيل: لا، فكيف يعقل أن يفرط أهل قطر عظيم كالعراق في كتابهم إلى هذا الحد، ولم تبد منهم أية حركة من مقاومة؟ أكان أهل العراق من خور العزيمة في هذه الدركة، وهم الذين انتدبوا لخلع عثمان فحاصروه في بيته، ثم لما خشوا فتنة تهب من أهل الشام من أجله قتلوه وولوا عليًا مكانه؟

وقد أحصى أهل العراق على عثمان عيوبًا جمة ليس مُنها أنه عمد إلى تحريف القرآن، وكانت هذه الحجة تكفي وحدها في صرف القلوب عنه، ودفعها لارتكاب أشد ضروب القسوة ضده.

وإذا صح أن ابن مسعود كتب لأهل العراق أن احتفظوا بمصاحفكم، فلِم لم يفاتح أهل المدينة في هذا الأمر، وهو بين ظهرانيهم، وينبههم إليه، وفيهم مئات من كبار أصحاب رسول الله ﷺ؟

وإذا كان فاتحهم فيه فهل يتفق أن يجمعوا كلهم على رفض قوله، وهل يعقل ألا يكون فيهم واحد يعرف ما يعرف هو من أن الفاتحة والمعوذتين ليست من القرآن فيشاركه في رأيه؟

لو كان ابن مسعود هذا بعد عهد النبي ﷺ بجيل أو جيلين، واكتشف مصحفًا أو مصاحف ليس فيها الفاتحة ولا المعوذتان، ونبه أصحابها على أن الذين جمعوا القرآن على عهد عثمان زادوها في القرآن وليست منه، لكان قول ابن مسعود يسترعي النظر

بعض الاسترعاء. أما وهو من أهل الصدر الأول، وحوله ألوف من أهل ذلك العهد، فلا يعقل أن يذهب قوله هباءً منثورًا كأنه لم يكن، ويقبل الناس كافة نسخة عثمان حتى أعداؤه، والكارهون لولايته.

إن هذه القولة المنسوبة لابن مسعود، ويعدها خصومنا شبهة على القرآن، لا يمكن التسليم بنسبتها إليه، جريا على أسلوب النقد الإسلامي. فإن المسلمين لا يقبلون قولا منسوبًا لنبيهم إلا بعد التحقق من حالة رواته العقلية والنفسية والدينية، وقد رفضوا مئات الألوف من الأحاديث المنسوبة إليه وعدوها موضوعة، وقد كذب الناس عليه في حياته، حتى قال: «من كذب عليَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار». فهل يقبل المسلمون أو المنصفون من غيرهم، قولة من هذا الطراز تقوم ضدها كل ما ذكرناه من المضعفات والمشككات؟

إننا نحمد الله على أن ادعاء الزيادة في القول المعزو إلى ابن مسعود جاء خاصًا بفاتحة الكتاب والمعوذتين، وهي السور التي لم يوجد في المسلمين منذ نشئوا إلى اليوم من لا يحفظها ويصلي بها، وهي لا تعدو الدعاء بالهداية والتوفيق، والاستعاذة من الشرور وعواملها المختلفة، فأي مصلحة جناها محرف القرآن بزيادة هذه الأدعية والاستعاذات به؟

يقول العامة: إذا سرقت فاسرق جملاً، يريدون إذا سمحت لك نفسك أن تحطها إلى دركة السرقة فاعمد إلى أثمن الأشياء وأجلها، لا إلى أصغرها وأحقرها. وهذا الذي سول له كفره أن



يحرف كلام الله لِم لم يعمد إلى أمر جلل فيدسه على الكتاب الإلهي، واكتفى بوضع فاتحة صغيرة له وخاتمتين؟

وهل يعقل أن من يريد تحريف الكتاب الإلهي لأمة، بالزيادة عليه، يضع تلك الزيادة في أوله وآخره بحيث يراهما أقل الناس عناية به، أم يضعها بحيث تختفي على السواد الأعظم من الناس؟

وهل يعقل أن المسلمين الأولين الذين كان شغلهم الشاغل القرآن، يبلغون من الغفلة أن يزاد في أوله وآخره ما ليس منه فلا يدركوه؟ أو أن يكونوا من قلة الاكتراث بسلامة القرآن بحيث يتركون هذه الزيادة لتشيع في الناس، حتى يأتي بعض خصوم الإسلام بعد أكثر من ثلاثة عشر قرناً فينبه أخلافهم إليه؟

اللهم إن كان قول يصح أن يضحك الثكالى وينسيهن مصابهن فهو هذا، وإن كانت شبهة يكفي في دحضها أن تورد بدون تعليق عليها فهي هذه!

وقال في صفحة٤٧ :

«إن ملايين المسلمين في بلاد العجم يعزون كلا الزيادة والنقص إلى عثمان، ويقولون إنه حذف كثيراً من الآيات في مدح علي، فضلاً عن سورة كاملة تركها تدعى سورة النورين. وقد طبعناها تذييلاً لهذا الكتاب. ونحن لا نثبت صحة هذه السورة، فقط نقول إن أمراً كهذا يبعث على الريبة ويبين ضعف الحجة المشهورة: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ

إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ولا يخفى أن علياً كابن مسعود أبى أن يسلم نسخته إلى عثمان لينقحها بحجة أنها كانت كاملة».

نقول: يدعى الكاتب أن (ملايين) من المسلمين في بلاد العجم يعزون إلى عثمان أنه حرف القرآن. وهذا ادعاء لا دليل عليه. فإن الإيرانيين سنية وشيعة يعتبرون القرآن الكريم منزهاً عن كل تحريف. ولكن هنالك بقية من الرافضة، لا يتجاوز عددهم بضعة ألوف، كان آباؤهم قد غلوا في حق علي حتى ادعوا أن الله حل فيه، وسجدوا له، فنهاهم فلم ينتهوا فأمر بقتلهم. فإذا كان هنالك أخلاف لهؤلاء الغلاة فإنهم لا يقولون: بتحريف القرآن، ولكنهم يؤولون بعض آياته لمصلحة مذهبهم.

فإن كابر كاتب هذه الشبهة في ذلك فليذكر لنا ما قالوه في هذا الشأن من بعض كتبهم المطبوعة، أما إرسال القول جزافاً بغير دليل فلا يقبل منه.

أما السورة التي ادعى أنها كانت موجودة في القرآن، وحذفها عثمان، وقال إنه طبعها في ذيل رسالته، فيكفينا أنه قد شك هو نفسه في أنها من القرآن، وهو لم يشك إلا لأنه يعلم أن رجلاً من شيعته قد وضعها ليشكك في الفرقان.

وليت ذلك الداعى لم يقدم على ما فعل؛ فإنه أثبت بدليل محسوس أن القرآن نسيج وحده، وأن مدعى الإتيان بمثله يضطر للأخذ منه، وإلا عجز عن محاكاته ولو ظاهراً. وذلك أن تلك السورة ليست بشيء سوى عبارات قرآنية أخذت من سور متفرقة،



وصيغت صياغة مزورة، فجاءت دليلاً محسوساً على أن من أقدم على هذا التزوير قد أقام حجة قاطعة على أن القرآن لا يقلد بحال من الأحوال.

وإليك عبارات من تلك السورة، وهي تقع في نحو صفحة ونصف صفحة من هذه المجلة:

{يأيها الذين آمنوا آمنوا بالنورين أنزلهما يتلوان عليكم آياتى ويحذرانكم عذاب يوم عظيم. نوران بعضهما من بعض وأنا لسميع عليم. إن الذين يوفون بعهد الله ورسوله في آيات لهم جنات نعيم. والذين كفروا من بعد ما آمنوا بنقضهم ميثاقهم وما عاهدوا الرسول عليه يقذفون في الجحيم. ظلموا أنفسهم وعصوا لولى الرسول (يريد علياً) أولئك يسقون من حميم. إن الله الذي نور السموات والأرض بما شاء واصطفى من الملائكة والرسل وجعل من المؤمنين أولئك من خلقه يفعل الله ما يشاء لا إله إلا هو الرحمن الرحيم. قد مكر الذين من قبلهم برسلهم فأخذتهم بمكرهم إن أخذى شديد أليم}.

يرى القارئ مما مر أن الذي زور هذه السورة قد أتى بعبارات قرآنية وحشر بينها من كلامه، فكانت من السخف والتقلقل بحيث ينبو عنها الطبع، ويدرك الفرق البعيد بين الكلام الإلهى المعجز وكلام البشر الركيك.

وإلى القارئ نموذجات أخرى من ركاكات هذه السورة الملفقة:

{يأيها الرسول بلغ إنذاري فسوف يعلمون}

{مثل الذين يوفون بعهدك أني جزيتهم جنات النعيم}

{وإن عدوهم إمام المجرمين} .

{وإن عليا لمن المتقين}

{يأيها الرسول قد أنزلنا إليك آيات بينات فيها من يتوفه مؤمناً ومن يتوله من بعدك يظهرون} .

{ولقد أرسلنا موسى وهرون بما استخلف ، فبغوا هرون ، فصبر جميل} .

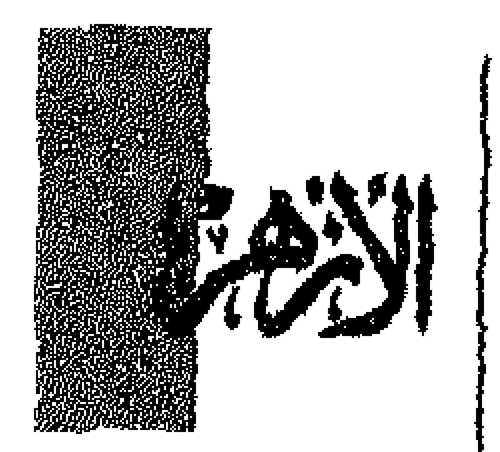
{فاصبر فسوف يبلون : ولقد آتينا لك الحكم كالذين من قبلك من المرسلين . وجعلنا لك منهم وصياً لعلهم يرجعون} .

{إن علياً قانتا بالليل ساجداً يحذر الآخرة ويرجو ثواب ربه ، قل هل يستوى الذين ظلموا وهم بعذابي يعلمون} .

{إنا بشرناك بذرية الصالحين . وإنهم لأمرنا لا يخلفون} .

{وعلى الذين سلكوا مسلكهم منى رحمة وهم في الغرفات آمنون} .

هذه نموذجات من تلك التلفيقات المضحكة، فمن يبلغ مرتكبها أن تحدى القرآن لو كان من هذا الضرب لاستطاع تلاميذ المدارس الأولية أن يأتوا بسورة بل سور من مثله ؟ ولكن من كانت في رأسه مسكة من عقل يحجم عن مثل هذا الهذر ، ويعرف أن هذا السلاح المفلول لا يقتل إلا صاحبه المسكين !



ولو كانت معايير البيان عند أصحابنا هو ما رأينا، فإننا نترفع عن حوارهم، لولا أنهم لا يتصدون إلا للغفل والجاهلين، فإن سكتنا خيل لهم أننا عجزنا عن رد كيدهم عليهم، وما يكيدون إلا أنفسهم وما يشعرون.

وقد قال كاتب الرسالة في شبهته هذه: «ولا يخفى أن علياً- كابن مسعود- أبى أن يسلم نسخته إلى عثمان لينقحها بحجة أنها كانت كاملة».

نقول: إذا ثبت أن علياً لم يسلم نسخته إلى عثمان بحجة أنها كانت كاملة، فمعنى كاملة أنها كانت مطابقة لنسخة عثمان من كل وجه، وإلا فما الذي كان يمنعه أن يحاج عثمان في أمر نسخته التي يدعى الخصم أنها كانت محرفة؟

لعله يدعى أنه لم يفعل ذلك اتقاء بطش عثمان، فنسلم له ذلك جدلاً، وإن كان عثمان في حاجة إلى حماية علي، ونقول: فما الذي كان يمنع علياً وقد أفضت إليه إمارة المؤمنين أن يأمر بنسخ نسخ جديدة من مصحفه، إن كان مخالفاً لنسخة عثمان، وينشرها في الآفاق تخليصاً للقرآن الكريم من آفة التحريف؟

هل كان علي وهو أمير المؤمنين قليل الاكتراث لهذا الأمر فأهمله، ورضى أن يستقر التحريف في القرآن وهو قادر على إزالته؟

وهل اتفق أن كان جميع خصوم عثمان قليلى المبالاة بالقرآن إلى حد أنهم، حتى بعد زوال ملكه، يقرون التحريف الذي أوجده

في الكتاب الذي يعبدون الله بتلاوته؟

اللهم إن هذه محالات عقلية لا توجد معدة في الأرض تستطيع هضمها، ولا ندرى كيف استطاع أن يهضمها كاتب هذه الرسالة؟!

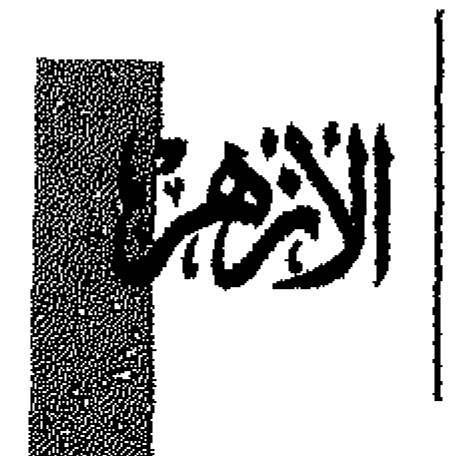
وقال في صفحة ٤٨:

«جاء أن عمر كان يقبل كل آية بشهادة شاهدين فكان من الممكن أن ترفض آية صحيحة إذا شهد بها شاهد واحد، وأن تقبل آية محرفة إذا شهد بصحتها شاهدان».

نقول كيف يقبل العقل مثل هذا القول؟ قد ثبت بالتواتر التاريخي أن القرآن كان يحفظه الخلفاء الأربعة ومئات من الناس، وكان مكتوباً كله، ومحفوظاً في دار النبي ﷺ، وأن أبا بكر لما أمر بكتابته ندب لذلك جمهرة من حفظته، على رأسهم زيد بن ثابت فكتبوه، فما شأن عمر بعد ذلك في هذا الأمر؟

هل كان القرآن آيات منثورة مفرقة بين الناس، يحفظ منها هذا آية، وذلك أخرى، فلما أريد جمعه كان الذي يحفظ منه شيئًا يأتي فيفضي بالذي عنده، فيكتب عنه بشهادة شاهدين ويرد منه ما لا يشهد به إلا شاهد واحد؟

إذن ماذا كان يحفظ منه حفاظه؟ ولم ندبوا لكتابته دون غيرهم؟ أما كان الأجدى أن يعلن الناس بذلك، وينادى فيهم: من كان يحفظ شيئًا من القرآن فليفض به، وليستشهد على صدقه شاهدين؟



شيء من ذلك لم يكن، وإنما الذي كان هو أن أمير المؤمنين أمر أن يكتب المصحف من المخطوطات المحفوظة، ومن صدور حفاظه الغيورين عليه، وهذا جهد كل دون أن يسقط منه حرف واحد. فهل أدق منه في جمع كتاب بدون تحريف

فإذا كان الكاتب نقل هذا من كتا قائله؛ لأنه غير معقول. وهل يهدم قول دل التواتر عليه؟

وقال في صفحة ٤٨ أيضًا:

«جاء عن مسلم أن أبا موسى الأشع القراء في البصرة: إننا كنا نقرأ سورة بـ فقد نسيتها ما عدا بعض الآيات».

نقول: يسوق الكاتب هذه الشبهة يأسف على أن ذهب من القرآن مقدار سورة طويلة فنسيها إلا بعض آيات م يلاحظ أنه يذكر ذلك لخمسمائة من الق

والحقيقة أن أبا موسى المذكور لو يذكر لهم ما نسخت تلاوته من آيات ا النسخ نبه عليه النبي ﷺ وحدده تحدي اثنان من المسلمين في شيء منه. ولو ... أسفاً منه، فلم لم يهتم بها هو حتى نسيها؟ أليس المفهوم بداهة

أنه نسيها لأن تلاوتها قد نسخت فأهملها ؟

ومما تجب ملاحظته أيضا أن أبا موسى قال ذلك لخمسمائة من القراء، أي لخمسمائة ممن جردوا أنفسهم للقرآن. فماذا يكون وقع هذا الكلام منهم لو كان أبو موسى يقوله متأسفاً من ضياع بعض الكتاب ؟

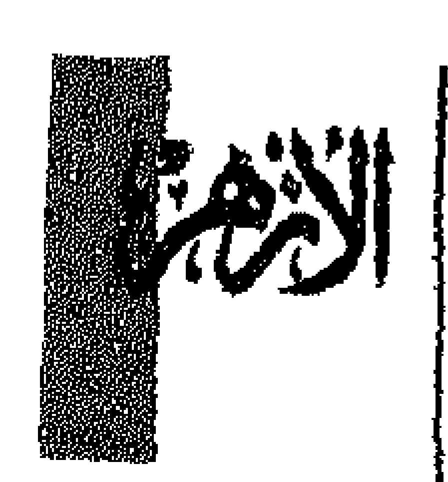
لقد علمت أن أصحاب الحديث كانوا يجولون الأقطار الشاسعة وراء سماع الأحاديث ممن يحفظون شيئًا منها طلباً لجمعها، وكانوا يبذلون وراء ذلك أنفسهم ونفائسهم، حتى تروى عنهم فيها الأعاجيب التى لم تتفق لمجتهدى أمة من الأمم، فهلا كان يدفع كلام أبى موسى هؤلاء الحفاظ للبحث عن تلك الآيات المفقودة، وأصحاب رسول الله ﷺ لا يزالون أحياء، فكانوا يرحلون إلى المدينة وغيرها ينقبون عن حفاظ تلك السورة حتى يجمعوا مشتت آياتها، أو أكثر تلك الآيات ؟

وكيف يعقل أن أبا موسى لم يلقن الخمسمائة من القراء الذين قابلهم الآيات التي مازالت عالقة بذاكرته منها ؟ وكيف لم يطلبها منه أولئك القراء ؟

قس على هذا كل ما أورده كاتب هذه الرسالة مما يشبه هذا كما قال في صفحة٤٩ :

«وروى أبو موسى نفس الحديث عن سورة أخرى كالصيحات قد ضاعت»

«وروى عن عائشة أن الآية عن الرضاعة كانت تقرأ في زمن



النبي ولكنها مفقودة الآن من القرآن (نرجو القارئ أن يلاحظ أن كلمات (قد ضاعت) و(مفقودة الآن من القرآن) من تعبير كاتب الرسالة عمد إليها للتهويل».

وقال في صفحة ٤٩ :

«وقال أيضا جلال الدين السيوطى[٦٠] : «حدثنا ابن أبى مريم عن أبى لهيعة ابن الأسود عن عروة بن الزبير عن عائشة قالت : كانت سورة الأحزاب تقرأ في زمن النبي ﷺ مائتى آية فلما كتب عثمان المصحف لم يقرر منها إلا ما هو الآن (وهي الآن سبع وسبعون آية).

«وقال ابن جيش قال أبى بن كعب كم تعد سورة الأحزاب، قال اثنتين وسبعين آية أو ثلاثاً وسبعين آية . قال كانت تعدو سورة البقرة».

«وأخرج البخاري في تاريخه عن حذيفة، قال قرأنا سورة الأحزاب على النبى فنسيت منها سبعين آية ما وجدتها».

«وروى جلال الدين أن عبيداً كان يقول حدثنا إبراهيم عن أيوب عن نافع قال : «لا يقولن أحدكم قد أخذت القرآن كله، وما يدرى ما كله، فقد ذهب منه قرآن كثير ولكن ليقل قد أخذت منه ما ظهر».

(٦٠) السيوطي، جلال الدين، عبد الرحمن بن أبي بكر [٨٤٩- ٩١١هـ، ١٤٤٥-١٥٠٥م] حافظ، ومؤرخ، ومن كبار أصحاب الموسوعات. وكان أشبه ما يكون بالمؤسسة التي جمعت أشتات الفكر الإسلامي بعد النكبة التي أصابت مكتبات بغداد على أيدي التتار.

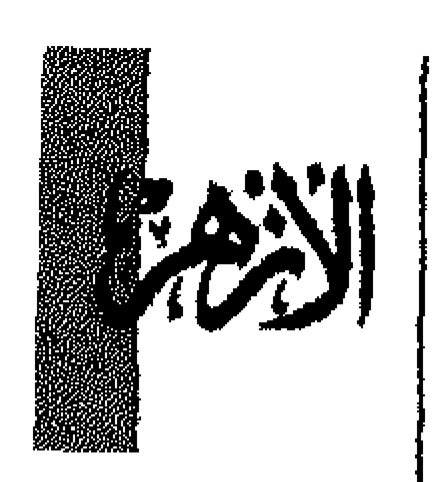
«وعن مالك أن أول سورة براءة سقط مع البسملة، فقد ثبت أنها كانت تعدل البقرة لطولها».

«وقال أيضا مسلم: إن الآية بخصوص الرجم كان قبلاً في القرآن وكان عمر مقتنعا بصحتها حتى أقسم بالله إنه إنما منع عن تدوينها خشية الاتهام».

«فترى مما تقدم (القائل كاتب الرسالة) أنه طرأ على القرآن كثير من الحذف، وبعبارة أخرى أن كلمة الله قد اعتراها النقص»، انتهى كلامه.

نقول: إن كل ما جمعه كاتب الرسالة من هذه الأقوال، يفسرها ما ذكرناه مراراً، من أن القرآن نسخت منه تلاوة آيات كثيرة على عهد النبى ﷺ، وقد علم المسلمون الأولون ذلك ولم يختلفوا فيه.

وإذا كانت عائشة قالت ما نقله عنها كاتب الرسالة وهو: «كانت سورة الأحزاب تقرأ في زمن النبى ﷺ مائتى آية، فلما كتب عثمان المصحف لم يقرر منها إلا ما هو الآن»، إذا كانت هي قائلة هذا القول، وتعنى به أن عثمان جنى على القرآن فحذف منه ما كان يجب أن يبقى فيه، فلم كانت تدافع عن عثمان، حتى إنه لما قتل خرجت في مقدمة الخارجين على علي، متهمة إياه بالإغراء بقتله، وحضرت وقعة الجمل تحريضاً للناس على الثبات في وجه أمير المؤمنين؟ فهل كانت تريد أن تفهم الناس أن عثمان الذي نقص من آيات القرآن، يستحق أن تسفك في سبيل الثأر له كل هذه الدماء؟



ومما رواه كاتب الرسالة عن البخارى أن حذيفة قال: «قرأنا سورة الأحزاب على النبى ﷺ فنسيت منها سبعين آية ما وجدتها».

هذا كلام يريد أن يفهم منه صاحب ذلك الكتيب أن حذيفة يأسف لنسيان سبعين آية من سورة الأحزاب. ولكن الجملة لا تشعر بأسف وبخاصة من أجل ضياع بعض القرآن، الأمر الذي لو كان لاستتبع من الأحداث ما لا يعلم هوله إلا الله. فحذيفة يذكر أنه نسى سبعين آية من القرآن، كما يذكر أنه نسى قصيدة كان يحفظها لبعض الشعراء.

هب أن حذيفة قال ذلك لبعض الناس، أفما سأله ذلك البعض قائلاً: «هل تلك الآيات لم توجد فيما أمر النبى ﷺ بكتابته وحفظه من القرآن؟ وهل نسيها جميع حفاظه؟ وهل اتفق أن نسيها المسلمون أجمعون؟ وهل سعى حذيفة للحصول عليها فخاب؟ إننا سمعنا أن بعض جامعى الأحاديث كانوا يسافرون لياليَ وأياماً لسماع أحاديث معدودة من رواتها، فهلا حفزت الحمية بعض المسلمين للتنقل في الأقطار سائلين عن تلك الآيات؟

أليست تدل هذه السكينة التي تظهر بها قائلو هذه الأقوال، والذين يسمعونهم، على أن أمرها لا يعدو أحد احتمالين: فإما أنها مدسوسة على قائليها، أو أنهم يريدون بها الآيات التي نسخت تلاوتها من القرآن؟

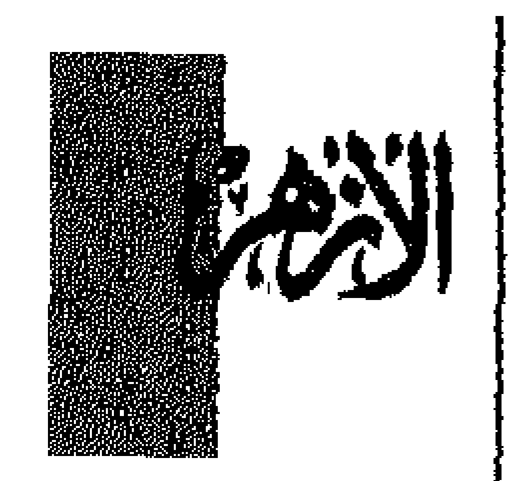
فإن قال معترض: لو كان هذا الأمر من قبيل الدس لما عجز الدساسون أن يحيطوه بشيء مما يدل على الأسف والاهتمام.

قلنا: لو فعلوا ذلك خشوا أن يكذبوا فيه؛ لأن هذا الاهتمام كان يظهر له أثر كبير فيما نقل إلينا من أحوال الصحابة. وقد نقل تاريخهم إلينا أنهم تضاربوا وتسابوا وقاتل بعضهم بعضاً. أما وقد سكتت جميع المصادر التاريخية عنها، فمعنى ذلك أنه لم يكن له أثر على الإطلاق. وهذا غير معقول إذا كان قد ضاع شيء من القرآن كما فصلنا ذلك تفصيلاً فيما مر من الكلام.

ومن أدل الدلائل على أن هذا الأمر لم يكن له أثر في تاريخ هذا الدين، سكوت علماء الكلام عنه. فإن هذا العلم الذي عنى بكل صغيرة وكبيرة من الشبهات التى أثيرت ضد الإسلام، صمت حيال هذه المسألة كل الصمت ولم يشر إليها بكلمة واحدة. وقد أورد شبهات الكفار على وجود الله، فهل يضن أن يورد الشبهات على نقص كتابه أو الزيادة فيه؟

فلو قيل إنهم صمتوا عنها تفادياً مما تثيره من النتائج الخطيرة، قلنا فكيف تسكت عنه الفرق الإسلامية والخوارج وعددها أكثر من سبعين، وفي بعضها من الغلو والتقصير ما أخرجها عن دائرة الإسلام؟ فهل هي أيضاً خشيت من نتائجه الخطيرة وقد قامت تؤيد مذاهبها بالسيف والنار؟

وإن سلمنا جدلاً بأن قول الخصم معقول، فهل هو معقول من بعض علماء اليهود الذين كانوا في جدال مستمر مع علماء المسلمين؟ فلم لم يتخذوا التحريف الذي يزعم الزاعمون أنه وقع في القرآن من الزلات التي يحصونها على كتاب المسلمين



في تلك الأزمان، لاسيما وقد كان المسلمون يرمونهم بتحريف التوراة؟

اللهم إن هذه حجج قاطعة على أن ما يروى من حذف بعض آيات القرآن إنما حصل فيما كان منها منسوخ التلاوة؛ ولذلك لم ينتطح حوله عنزان.

وقال صاحب تلك الرسالة في صفحة ٥٤:

«وفضلاً عن ذلك أن آيات القرآن الحالية تختلف لفظاً حتى انشق علماء الإسلام في تفسيرها إلى أحزاب».

«مثلاً قوله في سورة محمد (قتلوا) وفي رواية أخرى قاتلوا، وكذلك قد اختلفوا في أمر الجهاد، وكذلك اختلفت القراءة في سورة الحج بين يقاتلون ويقاتلون (بكسر التاء وفتحها) إلخ».

نقول: يريد الكاتب مما ذكره مسألة اختلاف القراءات. أما وقد انتهى به الأمر إليها، فإننا نخبره بأن هذا الاختلاف قد حدث على عهد النبي ﷺ، ورفع أمره إليه، فأقره بوحي من الله، ولو كان حدث بعده لكان للخصم مجال للخوض فيه، أما وهو على ما رأيت فلا مجال فيه لقائل كائناً من كان.

على أن هذه الاختلافات في القراءة لم تحلل حراماً، ولم تحرم حلالاً ولا هي تتعلق بالعقائد ولا العبادات ولا المعاملات، ولم تثر بين المسلمين حرباً، ولا اعتبرها أحد شبهة على الكتاب الإلهي.

فكل كلام في هذا الموضوع عبث محض لا يقام له وزن لا عند المسلمين ولا عند سواهم.

وإذا علم القارئ أن هذه الاختلافات في القراءة حدثت على عهد رسول الله فأقرها بوحي من الله، سقطت حيرة صاحب الرسالة في معرفة أي القراءات هي التي نطق بها محمد ﷺ.

ومن أدل الأدلة على أن المسلمين يعتبرون اختلاف القراءات أمرًا مشروعًا أن قراء القرآن يرتلون آياته مع مراعاة هذه الاختلافات، فيكررون بعض الآيات على ضروب شتي إدلالاً على تمكنهم من فنهم، والمسلمون يقابلون ذلك بالتقدير والإعجاب.

وبعد، فقد اتضح للقارئ بأقوى الأدلة وأنهض الحجج أن القرآن الكريم لا يعقل أن يكون قد اعتراه تحريف من أي ضرب كان، وأنه بقي محفوظاً في الصدور والسطور، وسيبقى كذلك أبد الآبدين، ودهر الداهرين مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر: ٩).



-٥-

القرآن والعلوم

الأستاذ العلامة مصطفى صادق الرافعي

للقرآن وجهٌ اجتماعي من حيث تأثيره في العقل الإنساني، وهو معجزة التاريخ العربي خاصة، ثم هو بآثاره النامية معجزةٌ أصلية في تاريخ العلم كله على بَسيط هذه الأرض، من لدُنْ ظهَر الإسلام إلى ما شاء الله، لا يذهب بحقها اليوم أنها لم تكن قبلُ إلا سببًا، فإن في الحق ما يَسعُ الأشياء وأسبابها جميعًا.

وليس يرتاب عاقل- ممن يَتدبَّرون تاريخ العلم الحديث، ويستقصون في أسباب نشأته، ويَتشبُثون عند الخاطر من ذلك إذا أقدموا عليه؛ وعند الرأي إذا قطعوا به- أنه لو لم يكن القرآن الكريم لكان العالمُ اليومَ غيرَ ما هو في كل ما يستطيلُ به، وفي تقدمه وانبساط ظل العقل فيه وقيامه على أرجائه، وفي نموه واستبحارِ عُمرانه. فإنما كان القرآن أصلَ النهضة الإسلامية وهذه كانت على التحقيق هي الوسيلةُ في استبقاء علوم الأولين وتهذيبها وتصفيتها، وإطلاق العقل فيما شاء أن يرتع منها(٦١)،

---

(٦١) كان العلم عند الأمم التي انطوت قبل الإسلام مما لا يستطيعه إلا طبقات تمتاز به وتُبينها الأمم من نفسها كما تُبين سائر الطبقات الإلهية، من الملوك والكهنة والأبطال وغيرهم، الذين هم آلهة الأمة، أو أبناء آلهتها، أو الواسطة إلى الآلهة، فكانت العلوم من خصائص الكهنة عند المصريين والأشوريين، وفي أبناء الأشراف خاصة عند الغرناطيين والرومان، وفي طائفة من الشبان=

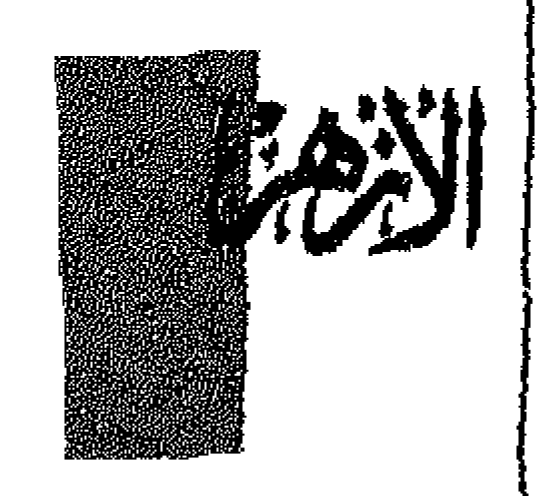
وأخذه على ذلك بالبحث والنظرِ والاستدلالِ والاستنباط، وتوفير مادة الرَّوية عليه بما كان سبباً في طلب العلم للعمل، ومزاولة هذا لذاك، إلى صفاتٍ أخرى ليس هذا موضع بَسطها، وهذا كله كان أساس التاريخ العلمي في أوروبا. فما من موضع في هذا (الأساس) القائم إلا وأنت واجدٌ من دونه قطعة من الآداب الإسلامية أو

=يقع عليهم الاختيار عند الهنود واليونان.

وكانت الدنيا القديمة على ذلك أو نحوه لا يصلح العلم إلا أن يكون نظرا وجدالا بين طائفة تتنافس فيه. لا لشيء إلا لأنه عملها وبه وزن أقدارها. ومتى كانت المنافسة ضيقة محصورة لا يشايع الناس عليها بعلم ولا يصوبون فيها ولا يخطئون فهي منافسة أهواء وشهوات ونزغات، يكون فيها العلم سلما تحطم منها تحت كل قدم ثقيلة درجة.

فلما جاء الإسلام حث على طلب العلم وعلى النظر والاعتبار والاستنتاج؛ وجعل شعار دعوته مثل قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ (يوسف: ١٠٨)، وقوله: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ (النحل: ١٢٥)، وترادفت أخبار الحث على طلب العلم فيه وفي كلام النبي ﷺ حتى قال عليه الصلاة والسلام: (اطلبوا العلم ولو في الصين) فكان هذا سببًا في إطلاق الحرية العلمية للناس جميعا، وخاصة أهل الأخلاق منهم الذين هم الطبقة الوسطى في كل أمة، والذين بهم قوام الأمة: إذ يحملون ما فوقهم ويمنعون عما تحتهم، وبذلك نضجت المنافسات العلمية وآتت ثمارها، وأفضى الأمر في العلوم إلى ما وقع من الامتحان والاختبار؛ ثم الاختراع والاستنتاج.

وهذا كله لم يعرفه أساتذة اليوم (الأوروبيون) إلا في القرن السادس عشر للميلاد؛ وهم قد أخذوه وأخذوا معه كثيرًا من الفضائل الاجتماعية عن المسلمين وعلمائهم، لا يكابر في ذلك منصفوهم وذوو الأحلام منهم، وإلى الله ترجع الأمور.



العقول الإسلامية، أو الحضارة الإسلامية، فالقرآن من هذا الوجه إنما هو البابُ الذي خرج منه العقلُ الإنساني المسترحلُ، بعد أن قطعَ الدهر في طفولةٍ وشباب.

وكل دين سماوي فإنما هو طورٌ من أطوار النمو في هذا العقل الإنساني، يستقبل به الزمن درجات جديدة في نشأته الأرضية؛ فما التاريخ كله إلا مِقياسٌ عقلي درجاته وأرقامه هذه العصور المختلفة التي يستعين العقل منها مقدار زيادته من مقدار نقصانه.

أما من وجه آخر فإن القرآن إنما هو الدرجة الأبدية التي أجاز عليها العالم في انتقاله من جهة إلى جهة[٦٢] وإنا لمستيقنون أن هذه الدرجة هي نفسها التي سيجيز عليها العالم كرّةً أخرى ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾. (الحج ٤١).

وأما إن هذا القرآن معجزة التاريخ العربي خاصةً وأصل النهضة الإسلامية، فذلك بيِّن من كل وجوهه؛ غير أننا سنقول في الجهة التي تتصل بنشأة العلوم، إذ هي سبيل ما نحن فيه من هذا الفصل، وقد أومأنا إلى بدء تاريخ التدوين العلمي وبعض أسبابه في باب الرواية من الجزء الأول من تاريخ آداب العرب، فنقتصر هنا على موجز من أسباب النشأة العلمية.

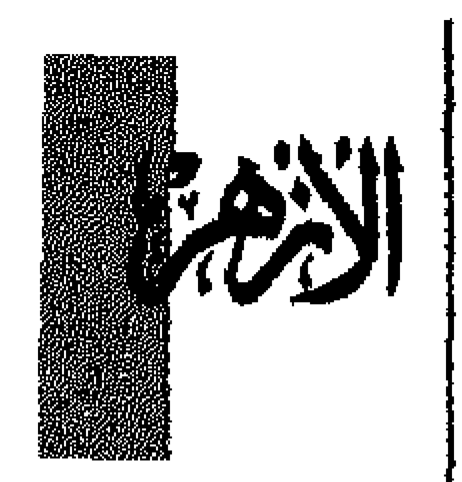
اختلف المسلمون في قراءة القرآن لعهد عثمان رضي الله عنه، وبدأت ألسنة الحضريّين ومن في حكمهم من ضعاف الفطرة

(٦٢) أي من المشرق إلى المغرب.

العربية؛ تجنح إلى اللحن وتزيغ عن الوجه في الإعراب، وجعل ذلك يفشو بين المسلمين بعد أن اضطرب كلام العرب فداخَلَه الشيءُ الكثير من المولَّد والمصنوع؛ وذهب أهل الفتن يتأوَّلون عن معاني القرآن ويحرِّفون الكلم عن مواضعه، وخيف على سنَّة رسول الله ﷺ وهي الأصل الثاني بعد القرآن؛ ثم فشا الجهل بأمور الدين وضعف عامة الناس عن حمل العلم وطلبه، واقتصروا من ذلك على أن يفزعوا إلى العلماء بالمسألة فيما يحدث لهم وما يرجون أن يتّفقوا فيه، ثم تباينت آراء العلماء واختلفت أفهامهم فيما يستنبطون من الأحكام وما يتأوَّلون لها من الكتاب والسنَّة، واختلط أمر الناس، وأقبلت عليهم الفتن كقِطع الليل، وامتدت إليهم كأعناق السيل، فكان ذلك كله ما بعث العلماء أن يفترقوا على جهات القرآن؛ حياطةً لهذا الدين. وقياماً بفروض الكفاية[٦٣]، يستقبل بعضهم بعضاً بالرِّفد والمعاونة، ويأخذون على أطراف الأمر كله، وهو أمرٌ لم يكن أكثره على عهد الصحابة رضي الله عنهم يوم كان العلم فروعًا قليلة، إذ كانت الأعلام بيِّنةً لائحة، وطريق الإسلام لا تزال فيها آثار النبوة واضحة، ومن ثم

---

(٦٣) كل علم نافع فهو في الشريعة الإسلامية فرض كفاية: إن لم يوجد في الأمة من يتحقق به أثمت الأمة جميعًا، وإن قام به البعض سقط عن الباقين. ولا يعرف مثل هذا الأصل الاجتماعي في غير الإسلام، ولم ترتق الأمم الحديثة إلا به، فإن لكل علم رجالًا ينقطعون له، يحيون به ويموتون عليه، وهم درجات تبنى في تاريخ الإنسانية، فالإسلام كما ترى يفرض على أهله أن يبنوا في هذه الإنسانية، والأمم تفعل ذلك تطوعًا وللحاجة، وبهذا يكون الإسلام أصلًا في التشريع الاجتماعي. وما عداه كالفرع.



جعلت العلوم تنبع من القرآن ثم تستجيشُ وتتسع، وأخذ بعضها يمدُّ بعضاً.

قال أحد العلماء: «فاعتنى قومٌ بضبط لغاته وتحريز كلماته، ومعرفة مخارج حروفه، وعددها، وعدد كلماته وآياته وسوّره وأحزابه وأنصافه وأرباعه، وعدد سَجداته، والتعليم عند كل عشر آيات؛ إلى غير ذلك من حصر الكلمات المتشابهة، والآيات المتماثلة، من غير تعرُّضٍ لمعانيه، ولا تدبُّر لما أودع فيه فسمّوا القرّاء!

واعتنى النحاة بالمعرَب منه والمبني من الأسماء والأفعال والحروف العاملة وغيرها، وأوسعوا الكلام في الأسماء وتوابعها، وضروب الأفعال، واللازم والمتعدى، ورسوم خط الكلمات وجميع ما يتعلق به، حتى إن بعضهم أعرب مشكله، وبعضهم أعربه كله[٦٤].

واعتنى المفسرون بألفاظه، فوجدوا منه لفظًا يدل على معنى واحد، ولفظًا يدل على معنيين، ولفظًا يدل على أكثر، فأجْرَوا الأول على حكمه، وأوضحوا معنى الخفي منه، وخاضوا في ترجيح أحد محتملات ذي المعنيين أو المعاني، وأعمل كل منهم فكره، وقال بما اقتضاه نظره.

---

(٦٤) توسع النحاة وأهل اللغة في شواهد القرآن ونقبوا عنها واستعرضوا لها ما انتهى إليهم من كلام العرب، فلا يُعرف في تاريخ العلوم اللسانية قاطبة شواهد تبلغ عدتها أو تقاربها أو تكون منها على نسبة متكافئة، فإن مبلغ ما أحصوه من شواهد القرآن فيما ذكروا ثلاثمائة ألف بيت من الشعر، ولعمر أبيك إنها لمعجزة في فنها ولو بلغت الشواهد نصف هذا القدر لكانت المعجزة كاملة.

واعتنى الأصوليون بما فيه من الأدلة العقلية والشواهد الأصلية والنظرية، فاستنبطوا منه، وسموا هذا العلم بأصول الدين(٦٥).

وتأملتْ طائفة منهم معاني خطابه، فرأت منها ما يقتضي العموم ومنها ما يقتضي الخصوص، إلى غير ذلك، فاستنبطوا منه أحكام اللغة من الحقيقة والمجاز.

وتكلموا في التخصيص والأخبار والنص والظاهر والمجمل والمحكم والمتشابه والأمر والنهي والنسخ، إلى غير ذلك من أنواع الأقيسة واستصحاب الحال والاستقراء، وسموا هذا الفن أصول الفقه.

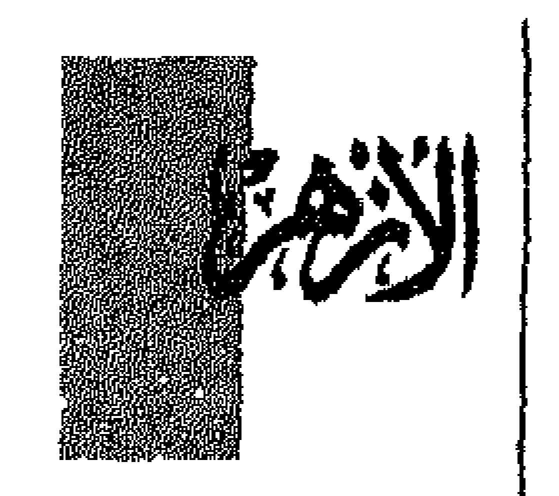
وأحكمت طائفة صحيح النظر وصادق الفكر فيما فيه من الحلال والحرام وسائر الأحكام؛ فأسسوا أصوله، وفرَّعوا فروعَهُ، وبسطوا القول في ذلك بسطًا حسنًا، وسموه بعلم الفروع، وبالفقه أيضًا.

وتلمَّحت طائفةٌ ما فيه من قِصَصِ القرون السالفة، والأمم الخالية، ونقلوا أخبارهم، ودوّنوا أخبارهم ووقائعهم، حتى ذكروا بدء الدنيا وأول الأشياء؛ وسموا ذلك بالتاريخ(٦٦) والقَصَصِ.

---

(٦٥) وهو الذي يقال له اليوم علم التوحيد.

(٦٦) يجهل كثير من الناس أصل تسمية كتب الوقائع والأحداث وما إليها بالتاريخ، إنما هو أصلها، فكانت في مبدأ أمرها مقصورة على ما في القرآن من أخبار الأولين وقصصهم. ثم أطلقت التسمية فاستعملوها فيما اتسع من هذا العلم، وهو استعمال تواضع عليه أهل القرن الثاني للهجرة، أما في القرن الأول فلم



وتنبَّه آخرون لما فيه من الحِكم والأمثال والمواعظ التي تُقلْقل قلوبَ الرجال، فاستنبطوا مما فيه من الوعد والوعيد والتحذير والتبشير وذكر الموت والميعاد والحشر والحساب والعقاب والجنةِ والنار- فصولًا من المواعظ وأصولًا من الزواجر، فسمُّوا بذلك الخطباء والوعاظ.

وأخذ قومٌ مما في آية المواريث من ذكر السِّهام وأربابها وغير ذلك- علمَ الفرائض، واستنبطوا منها من ذكر النصف والربع والسدس والثمن حساب الفرائض.

ونظر قومٌ إلى ما فيه من الآيات الدالة على الحِكم الباهرة في الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم والبروج غير ذلك، فاستخرجوا منه علم المواقيت(٦٧).

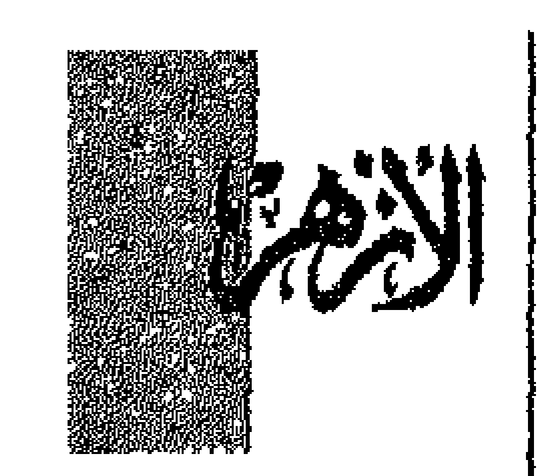
ونظر الكتابُ والشعراءُ إلى ما فيه من جزالة اللفظ، وبديع النظم، وحسنِ السياق، والمبادئ والمقاطع والمخالص والتلوين في الخطاب، والإطناب والإيجاز، وغير ذلك، واستنبطوا منه المعاني والبيان والبديع.

يكن يُعرف من معنى (التاريخ) إلا التوقيت، أي تعيين الوقت.

(٦٧) قال بعض المتأخرين: إن الميقات (أي العلم الذي تُعرف به أزمنة الليالي والأيام وأحوالها ومقاديرها لإيقاع العبادات في أوقاتها) مشار إليه في القرآن بقوله تعالى: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ﴾ قال: فإن عدد (رفيع) أي بحساب الجمل- ثلاثمائة وستون وهي عدد درج الليل والنهار. «قلنا»: وإذا أطلق حساب الجمل في كلمات القرآن كشف منه كل عجائب العصور وتواريخها وأسرارها. ولولا أن هذا خارج عن غرض الكتاب لجئنا منه بأشياء كثيرة من القديم والحديث.

انتهي تحصيلاً

وإنما أوردنا هذا القول لنكشفَ لك عن معنى عجيب في هذا الكتاب الكريم، فهو قد نزل في البادية على نبي أميّ وقوم أمِّيين لم يكن لهم إلا ألسنتُهم وقلوبهم، وكانت فنونُ القول التي يذهبون فيها مذاهبهم ويتواردون عليها، لا تجاوز ضروبًا من الصفات، وأنواعًا من الحكم، وطائفة من الأخبار والأنساب، وقليلًا مما يجري هذا المجرى، فلما نزل القرآن بمعانيه الرائعة التي افتن بها في غير مذاهبهم، ونزع منها إلى غير فنونهم، لم يقفوا على ما أريد به من ذلك، بل حملوه على ظاهره وأخذوا منه حُكم زمانهم، وكان لهم في بلاغته المعجزة مَقنَعٌ، وما درى عربي واحدٌ من أولئك لِمَ جعل الله في كتابه هذه المعاني المختلفة، وهذه الفنونَ المتعددة؟ التي يهيّجُ بعضُها النظر، ويشحذ بعضها الفكر، ويمكِّن بعضها اليقين، ويبعث بعضها على الاستقصاء، وهي لم تكن تلتئم على ألسنتهم من قبل؟. بيْدَ أن الزمان قد كشف بعدهم عن هذا المعنى، وجاء به دليلا بيِّنًا منه على أن القرآن كتاب الدهر كله؛ وكم للدهر من أدلة على هذه الحقيقة ما تبرح قائمة؛ فعَلمنا من صَنيع العلماء أن القرآن نزل بتلك المعاني، ليخرج للأمة من كل معنى علما برأسِه، ثم يعمل الزمن عمله فتخرج الأمة من كل علم فروعا، ومن كل فرع فنونا إلى ما يستوفى في هذا الباب على الوجه الذي انتهت إليه العلوم في الحضارة الإسلامية؛ وكان سببا في هذه النشأة الحديثة من بعد أن استدار الزمان وذهبت الدنيا مُستدبرة وأنشأ الله القرونَ والأجيالَ لتبلغ هذه الحادثة أجلَها ويتناهى بها القضاء وإنْ من



شيء إلا عند الله خزائنه، ولكنه سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ (الحجر ٢١).

ولقد كانت النهضة العلمية في زمن بني أمية قائمة بأكثر العلوم الإسلامية التي مرَّت الإشارة إليها، حتى امتهد أبو جعفر المنصور؛ ثم الرشيد[٦٨] من بعده للنهضة العباسية الكبرى التي نشأت من جمع كلمة أهل الفقه والحديث بعد انشقاقهم زمنا وافتراق الكلمة بينهم- ومن إقبال الناس على الطلب والاستيعاب؛ فكان ذلك تهيئة لانشقاق علوم الفلسفة والكلام وما إليها، وظهور أهلها وانحياز السنَّة عنها جانبا، ثم اجتماعها على مناظرتها؛ فإن المنصور[٦٩] لما حج في سنة ١٦٣هـ لقيه مالك بن أنس رضى الله تعالى عنه بمنى على ميعاد، بعد الذي كان مما أنزل به جعفرُ بن سليمان عامل المنصور على المدينة من الضرب بالسوط وانتهاك الحرمة وإزالة الهيبة[٧٠]، قال مالك رحمه الله: (ثم فاتحني (يعنى المنصور) فيمن مضى من السلف والعلماء، فوجدته أعلَم الناس بالناس؛ ثم فاتحني في العلم والفقه

(٦٨) هارون الرشيد [١٤٩-١٩٣هـ ٧٦٦-٨٠٩م] خامس خلفاء الدولة العباسية وأشهرهم.

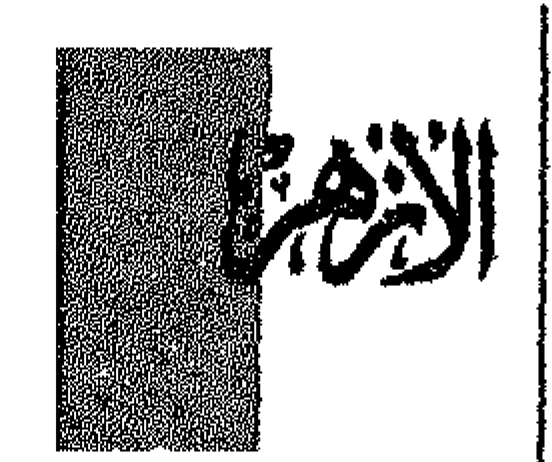
(٦٩) كان المنصور [٩٥-١٥٨هـ ٧١٤-٧٧٥م]، مع تقدمه في الفقه وبراعته في العلوم الإسلامية ذا بصر بالفلسفة والصناعة الفلكية، مؤثرا لأهل هذه الصناعة؛ وفي أيامه ترجمت طائفة من جياد الكتب، وكان هو أول من أمر بترجمة كتب الفلك والمنطق فقام بالأولى محمد بن إبراهيم الفزاري وأخرج الثانية كاتبه البليغ المشهور عبد الله بن المقفع، فله على العلم كما رأيت يدان.

(٧٠) وكان ذلك لأمر بلغ جعفرًا عن مالك، إذ قيل إنه كان يفتي بأن أيمان البيعة لا تحل لبني العباس ولا تُلزم الناس، لأنهم يبايعون لهم مخافة واستكراهًا.

فوجدته أعلم الناس بما اجتمعوا عليه وأعرفَهم بما اختلفوا فيه، حافظا لما روى، واعيا لما سمع، ثم قال لي: يا أبا عبد الله، ضع هذا العلم ودوّن منه كتبا، وتجنَّبْ شدائدَ عبد الله بن عمر، ورُخَصَ عبد الله بن عباس، وشواذ ابن مسعود، واقصد إلى أواسط الأمور وما اجتمع عليه الأئمة والصحابة رضي الله تعالى عنهم، لنحمل الناس إن شاء الله على علمك وكتبك، ونبثُّها في الأمصار، ونعهدَ إليهم أن لا يخالفوها ولا يقضوا بسواها. فقلت: أصلح الله الأمير، إن أهل العراق لا يرضون علمنا ولا يرون في علمهم رأينا. فقال أبو جعفر: (يُحمَلون عليه وتُضرب عليه هاماتُهم بالسيف وتُقطَع ظهورهم بالسياط!) فتعجَّلْ بذلك وضَعْها، فسيأتيك محمد ابني (المهدي) العامَ القابل إن شاء الله إلى المدينة ليسمعها منك، فيجدك وقد فرغتَ من ذلك إن شاء الله!.

ثم قدم المهدي على مالك، وقد وضع أجزاء كتابه (المُوطَّأ) فأمر بانتساخها وقرِئت على مالك. إلى أن كانت سنة ١٧٤هـ فخرج الرشيد حاجا، ثم قدم المدينة زائرا، فبعث إلى مالك فأتاه فسمع منه كتابه ذلك، وحضرهُ يومئذ فقهاء الحجاز والعراق والشام واليمن، ولم يتخلف من رؤسائهم أحد إلا وحضر الموسمَ مع الرشيد، وسمع وسمعوا من مالك موَطأهُ كله، ثم أنكروا عليه مسألة فناظروه فيها، حتى إذا كشَف لهم عن وجهها وأبان فيها طريق الرواية والتأويل صاروا إلى الرضى بقوله والتصديق لروايته والتسليم لتأويل ما تأوّل.

لا جرَمَ كان هذا سببا في اجتماع كلمة الفقهاء، إن لم يكن



ديانةً فسياسة، ولم يؤثَرَ من بعدها عن جماعة أهل العراق ما كانوا يستطيلون به على أهل الأمصار الأخرى، من عرض الدعوى وتطويل الحديث، وتخطئة من لا يليهم أو يواليهم؛ وقد كانوا قبل ذلك يربونهم[٧١] ويضيّقون عليهم متنفسهم من العلم، ويرون أن هذا العلم عَراقي، وأنْ ليس الأمر مع غيرهم بحيث إذا هو جدّ فيه رأى المادّة مؤاتية وبلغ منه مثل الذي بلغوه وكان دركه حقيقا بأن يسمى عندهم دركا، ولعل ذلك جاءهم في الأصل من قبل العربية وأهلها، فقد علمت من (باب الرواية) كيف كانوا يبسطون ألسنتهم ويتنبَّلون بعلمهم ويذهبون بأنفسهم؛ إذ لم يكن في الأرض أعلم منهم بالعربية؛ ولا أوثق في روايتها، ولا أجمع لأصولها، ولا أصح في ذلك كله[٧٢].

---

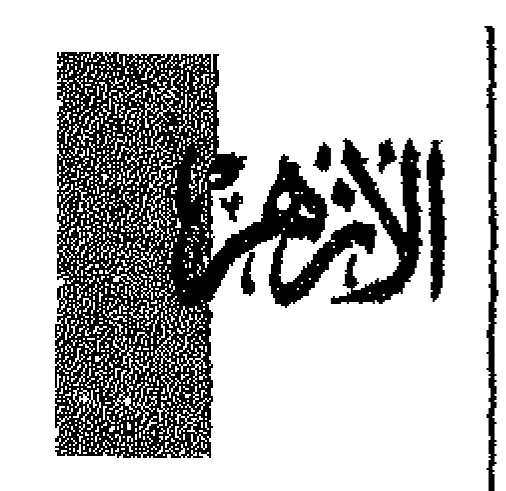
(٧١) يقال فلان لم يزل يسأل فلانًا حتى أرباه بالمسألة، وذلك إذا سأله حتى ضايقه كأنما أصابه بالربو، وهو عسر النفس.

(٧٢) مما يذكرونه من صنع الرشيد للفقهاء وعلومهم، هذا الخبر الذي يروى عن زاهد وقته وعالم دهره عبد الله بن المبارك المتوفى سنة ١٨٢هـ: وذلك أن الرشيد حين قدم الرقة؛ لقي عبد الله هذا، فلما همَّ بالقيام من عنده- وكان قد زاره في داره- قال ابن المبارك: يا أمير المؤمنين، إني أخشى أن يكون العلم قد ضاع قبلك كما ضاع عندنا، فقال الرشيد: أجل، إنه ما قلت. ثم لما قدم الرشيد العراق كان أول ما ابتدأ فيه النظر: أن كتب إلى الأمصار كلها، وإلى= =أمراء الأجناد: أما بعد، فانظروا من التزم الأذان عندكم، فاكتبوه في ألف من العطاء، ومن جمع القرآن وأقبل على طلب العلم وعمر مجالس العلم ومقاعد الأدب، فاكتبوه في ألف من العطاء وأقبل على طلب العلم وعمَّر مجالس العلم ومقاعد الأدب فاكتبوه في ألفي دينار من العطاء، ومن جمع القرآن وروى الحديث وتفقه في العلم واستبحر، فاكتبوه في أربعة آلاف دينار من العطاء، وليكن ذلك بامتحان الرجال السابقين لهذا الأمر من المعروفين به من علماء عصركم وفضلاء دهركم، فاسمعوا قولهم وأطيعوا أمرهم فإن الله تعالى يقول: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ (النساء: ٥٩). وهم أهل العلم.=

ولسنا نريد أن نخوض في الكشف عن مبدأ انتشار العلوم النظرية والعلل الباعثة عليها، ومن كان مع أهلها من الخلفاء ومن كان عليهم، فلذلك موضع في كتاب التاريخ هو أملك به وأوفى، غير أننا نوثّق الكلمة في أن القرآن الكريم هو كان سبب العلوم الإسلامية ومرجعها كلها- بأنه ما من علم إلا وقد نظر أهله في القرآن وأخذوا منه مادة علمهم أو مادة الحياة له، فقد كانت سطوة الناس في الأجيال الأولى من العامة وأشباه العامة شديدة على أهل العلوم النظرية، إلا أن يجعلوا بينها وبين القرآن نسبا من التأويل والاستشهاد والنظر، أو يبتغوا بها مقصدا من مقاصده، أو يريغوا معنى من معاني التفقه في الدين، إلى ما يشبه ذلك مما يكون في نفسه صلة طبيعية بين أهل العقول والبحث وأهل القلوب والتسليم(٧٣).

= قال ابن المبارك: فما رأيت عالمًا ولا قارئًا للقرآن ولا سابقًا للخيرات ولا حافظًا للمحرمات في أيام بعد أيام رسول الله ﷺ وأيام الخلفاء والصحابة أكثر منهم في زمن الرشيد وأيامه. وهذا الخبر وإن كان إلى المبالغة ما هو، ولكنه في أصله حقيق بالتصديق، فإن مناقب الرشيد- رحمه الله- كثيرة لا تضيق من دونه، وقد صحت الرواية بأنه ما اجتمع على باب خليفة قبله ما اجتمع على بابه من الشعراء وأهل الأدب، وقد كان يتفقدهم ويتقدم في طلبهم ويُحظيهم ويَفضُل عليهم، وما هذه الرواية إلا بسبيل من تلك، ولَتلك أقرب إلى الحق وأعلق بأسباب الزمن.

(٧٣) مما نورده تفكهة وبيانًا لاعتقاد العامة من أهل العقول، أيام كان القلب أكبر من العقل، ما رواه المسعودي: أن أبا خليفة الفضل بن الحباب الجمحي المتوفى سنة ٣٠٥هـ «وكان فصيحًا معربًا لا يتكلف الإعراب بل صار له كالطبع لدوام استعماله إياه من عنفوان حداثته، خرج مع بعض أصحابه متفكهين إلى نهر من أنهار البصرة وقد غيروا ظواهر زيهم كيلا يعرفهم الناس، وكان ذلك أيام المبادئ وهي الأيام التي يثمر فيها التمر والرطب،=



وما يزال أثر ذلك ظاهراً في فواتح الكتب العلمية لذلك العهد على اختلافها، فما تستفتح من كتاب إلا أَصبت في مقدمته غرضا من تلك الأغراض التي أشرنا إليها، أو ما يصلح أن يكون غرضا منها(٧٤)؛ ثم هو أمرٌ ليس أدل على تحقيقه من كتب التفسير،

= فيكبسونه في القواصر (أوعية التمر) ليصير تمرًا؛ وتكون حينئذ البساتين مشحونة بالرجال ممن يعمل في التمر من الأَكَرة (الزُّراع) وغيرهم، فلما أكلوا قال بعضهم لأبي خليفة غير مُكَنٍّ له خوفًا أن يعرفه من حضر من العمال في النخل: أخبرني (أطال الله بقاءك) عن قول الله عز وجل: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ (التحريم: ٦)، هذه الواو ما موقعها من الإعراب؟ قال أبو خليفة: موقعها رفع، و(قوا) هو أمر للجماعة من الرجال. قال له: كيف تقول للواحد من الرجال وللاثنين؟ قال: يقال للواحد من الرجال: ق، وللاثنين قيا، وللجماعة قوا. قالَ: كيف تقول للواحدة من النساء، وللاثنين، وللجماعة منهن؟ قال أبو خليفة: يقال للواحدة قي، وللاثنين قيا، وللجماعة قينَ. قال: فأسألك أن تعجل بالعجلة: كيف يقال للواحد من الرجال والاثنين والجماعة، وللواحدة من النساء والاثنين والجماعة منهن؟ قال أبو خليفة (وهو ينطق) عجلان: ق، قيا، قوا، قي، قيا، قين.

وكان بالقرب منهم جماعة من الأَكَرة، فلما سمعوا ذلك استعظموه، وقالوا: يا زنادقة، أنتم تقرؤون القرآن بحرف الدجاج..؟ وعَدوا عليهم فصفعوهم؛ فما تخلص أبو خليفة والقوم الذين كانوا معه من أيديهم إلا بعد كد طويل. وتروى هذه النادرة على وجه آخر، ولكن رواية المسعودي أملح؛ وكلتا الروايتين إلى مآل واحد؛ وفي رواية أخرى يقول الرجل العاصي: «إنهم زنادقة يقرؤون القرآن على صياح الديكة».

وروى ابن الأنباري في (طبقات الأدباء): أن محمد بن المستنير المعروف بقطرب المتوفى سنة٢٠٦هـ لما صنف كتابه في التفسير؛ أراد أن يقرأه في الجامع؛ فخاف من العامة وإنكارهم عليه، لأنه ذكر فيه مذهب المعتزلة؛ فاستعان بجماعة من أصحاب السلطان ليتمكن من قراءته في الجامع. والأخبار من مثل ذلك غير قليلة.

(٧٤) ومن ذلك أن (حكم الشارع) صار عند المتأخرين أحد المبادئ العشرة لكل فن.

فإنه لا يُعرف في تاريخ العالم كله- من لدن أرّخ الناس- كتابٌ بلغت عليه الشروح والتفاسير والأقوال والمصنفات المختلفة ما بلغ من ذلك على القرآن الكريم ولا شبيها به ولا قريبا منه، حتى فسرته الرَّوافض بالجفْر، على فساد ما يزعمون وسخافة ما يقولون، وعلى سوء الدعوى فيما يدّعون من عِلْم باطنه بما وقع إليهم من ذلك الجفر(٧٥) واستنبط منه غيرهم إشارات من الغيب

---

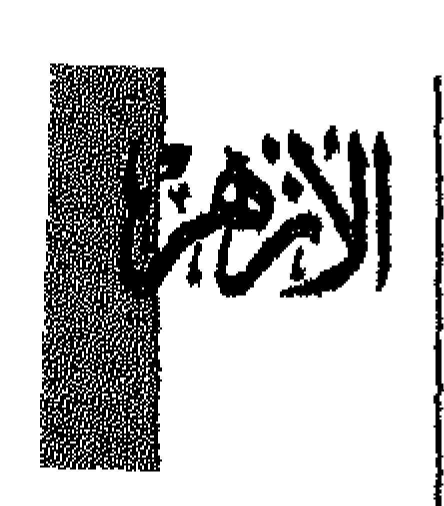
(٧٥) قال ابن قتيبة (في تأويل مختلف الحديث): هو جلد جفر ادعوا أنه قد كتب لهم الإمام فيه كل ما يحتاجون إلى علمه، وكل ما يكون إلى يوم القيامة، ثم أورد أمثلة من تفسيرهم، فمن ذلك قولهم في قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗ﴾ (البقرة: ٦٧): إنها عائشة رضي الله عنها... وفي قوله تعالى: ﴿فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ﴾ (البقرة: ٧٣): إنه طلحة والزبير، وقولهم في آية الخمر والميسر: إنهما أبو بكر وعمر. وفي آية الجبت والطاغوت: إنهما معاوية وعمرو بن العاص... إلخ إلخ، وكان بعض أهل الأدب يقول: ما أشبه تفسير الرافضة للقرآن إلا بتأويل رجل من أهل مكة للشعر، فإنه قال ذات يوم: ما سمعتُ بأكذب من بني تميم زعموا أن قول القائل:

بيت زُرارة مُحتَب بفنائه ومُجاشعٌ وأبو الفوارس نهشَلُ

أنه في رجال منهم. قيل له: فما تقول أنت فيهم؟ قال: البيت بيت الله، وزرارة الحِجر. قيل: فمجاشع؛ قال: زمزم جشعت بالماء. قيل: فأبو الفوارس؟ قال: أبو قبيس. قيل فنهشل؟ قال: نهشل أشدها. وفكر ساعة ثم قال: نهشل مصباح الكعبة، لأنه طويل أسود، فذلك نهشل... اهـ.

والمراد بالجفر رق صنع من جلد البعير. ومن أراد الاتساع في معرفته فليرجع إلى ما نقله صاحب كشف الظنون في معنى علم الجفر والجامعة وأهل هذا العلم.

وقد كشف ابن خلدون في مقدمته في فصل ابتداء الدول والأمم عن شيء من مسمى هذا الجفر، ونقل أنه كان جلد ثور صغير. وأن هارون العجلي روى ما فيه عن جعفر الصادق وكتبه في كتاب سماه الجفر، قال: وكان فيه تفسير القرآن وما في باطنه من غرائب المعاني.=



شهر مدة الدولة الأموية! فقد كانت أيامها خالصة ثلاثا وثمانين سنة وأربعة أشهر مجموعها ألف شهر سواء[٧٦] وحتى زعم بعضهم أن الكلمات التي في أوائل السور إنما تحتوي مدد أعوام

= وعندنا أن كل ذلك موضوع وباطل، وأن الكلام فيه أسلوب من أساليب القصص وضرب من التهويل والمبالغة، ولا نظن أن علم ما كان وما يكون شيء يسعه أو يسع الرمز إليه جلد ثور، إلا أن يكون هذا الثور هو الذي قيل فيه إنه كان يحمل الأرض قديمًا على أحد قرنيه...!

(٧٦) ومن أعجب ما وقفنا عليه، أن الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي أمر في حلب بصنع منبر لبيت المقدس قبل فتحه وانتزاعه من أيدي الإفرنج بنيف وعشرين سنة. قال صاحب (الروضتين) بعد أن ذكر أن هذا قد يكون كرامة له: ثم يحتمل أن يكون (رحمه الله) وقف على ما ذكره أبو الحكم ابن برجان الأندلسي في تفسيره. فإنه أخبر عن فتح القدس والسنة التي فتح فيها، وعمر نور الدين إذ ذاك إحدى عشرة سنة، وقد رأيت أنا ذلك في كتابه: ذكر تفسير أول سورة الروم، أن بيت المقدس استولت عليه الروم عام سبع وثمانين وأربعمائة، وأشار أنه يبقى بأيديهم إلى تمام خمسمائة وثلاث وثمانين سنة، قال: ونحن في عام اثنتين وعشرين وخمسمائة، فلم يستبعد نور الدين (رحمه الله) لَمّا وقف عليه أن يمتد عمره إليه، فهيأ أسبابه حتى منبر الخطابة فيه، تقربًا إلى الله تعالى بما يبديه من طاعته ويخفيه، قال: وهذا الذي ذكره أبو الحكم الأندلسي في تفسيره من عجائب ما اتفق لهذه الأمة المرحومة، وقد تكلم عليه شيخنا أبو الحسن علي بن محمد في تفسيره الأول فقال: وقع في تفسير أبي الحكم الأندلسي في أول سورة الروم إخبار عن فتح= =بيت المقدس، وأنه ينزع من أيدي النصارى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة. قال لي بعض الفقهاء: إنه استخرج ذلك من فاتحة السورة. قال: فأخذت السورة وكشفت عن ذلك فلم أره أخذ ذلك من الحروف، وإنما أخذه فيما زعم من قوله تعالى: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾ (الروم من ٢ إلى ٤).

فبنى الأمر على التاريخ كما يفعل المنجمون ثم ذكر أنهم يغلبون في سنة كذا على ما تقتضيه دوائر التقدير. قلنا: وكيفما كان الأمر فإنه لمعجزة.

وأيام لتواريخ أمم سالفة، وأن فيها تاريخ ما مضى وما بقي مضروبا بعضها في بعض، إلا كثير من مثل هذا مما يُخطئه الحصر، وإنما أشرنا إلى بعضه لغرابته، ولأن أغرب ما فيه أنه عند أهله من بعض ما يفسَّرُ به القرآن[٧٧].

وقد أوردنا في باب الرواية من التاريخ أن أبا علي الأسواري القاص البليغ، فسَّر القرآن بالسِّيَر والتواريخ ووجوه التأويلات، فابتدأ في تفسير سورة البقرة، ثم لبث يَقصُّ ستاً وثلاثين سنةً،

---

(٧٧) أما المتصوفة ومن يقلدون علم الباطن، فلا حصر لمذاهبهم وأقوالهم في تفسير القرآن، وبخاصة المتأخرين منهم، فهؤلاء لهم في ذلك المزاعم العريضة، مما يخرج عن أن يكون من علم الناس فإلى الله أمره. وقد ذكر الشيخ محيي الدين ابن العربي في (الفتوحات) عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ (يس: ١٢)، أن قوله (أَحْصَيْنَاهُ) يدل على أنه تعالى ما أودع فيه إلا علوما متناهية، مع كونها خارجة عن الحصر لنا. قال: وقد سألت بعض العلماء بالله تعالى: هل يصح لأحد حصْر (أمهات) هذه العلوم؟ فقال: نعم، هي مائة ألف نوع، وتسعة وعشرون ألف نوع، وستمائة نوع، كل نوع منها يحتوي على علوم لا يعلمها إلا الله تعالى. اهـ بنصه.

قلنا: قد ألَّف بعض علماء القوم كتابا سماه «تنبيه الأغنياء على قطرة من بحر علوم الأولياء» كانت هذه القطرة فيه زُهاء ثلاثة آلاف علم، فترى ما عسى أن يكون البحر؟ اللهم إن السلامة في الساحل، ولكن لبعض المحققين من مشايخ الصوفية دقائق في التفسير لا تتفق لغيرهم لسمو أرواحهم ونور بواطنهم، ومنهم الإمام السلطان الحنفي صاحب المقام المشهور في القاهرة. سمعه يوما شيخ الإسلام البلقيني يفسر آية فقال: لقد طالعت أربعين تفسيرا، فما وجدت فيها شيئا من تلك الدقائق. ويزعم الشيعة أن عليا رضي الله عنه ،أملى ستين نوعا من أنواع علوم القرآن، وذكر لكل منها مثالا يخصه، وأن ذلك في كتاب يروونه عنه، من طرق عدة، وهو في أيديهم إلى اليوم، وذلك وإن كان قريبا فيما يعطيه ظاهره، غير أنه بالحيلة على تقريبه من الحقيقة صار أبعد منها وأمحص في الزعم.

ومات ولم يختمه، وكان ربما فسر الآية الواحدة في عدة أسابيع لا يَني ولا يتخلف، وليس في هذا الخبر شيء من المبالغة أو التزيُّد، بل عسى أن يكون الأمر مع أهل التحقيق والاطلاع أبلغ منه، وهذه كتب التفسير التي عدّها صاحب (كشف الظنون) وسرد أسماءَها في كتابه، تبلغ ثلثمائة ونيِّفا، والرجل إنما عدَّ بعضها كما يقول. وأنت فلا يذهبنَّ عنك أن كل كتاب منها فإنما هو في المجلدات الكثيرة إلى مائة مجلد، وإلى ما يفوق المائة أحيانا، فقد رأينا في بعض كتب التراجم أن أبا بكر الأدفوي المتوفي سنة ٣٨٨هـ صنّف (كتاب الاستغناء) في تفسير القرآن في مائة مجلد، وكان منفردا في عصره بالإمامة في أنواع من القراءات والعربية وفنون كثيرة من العلم، وذكر الفيلسوف (أرنست رِنان)[٧٨] أنه وقف على ثَبت يدل على أنه قد كان في إحدى مكاتب الأندلس التي أُحرقت تفسير للقرآن في ثلثمائة مجلد. وذكر الشعراني[٧٩] في كتابه (المنن) تفسيرا قال إنه في ألف مجلد.

وهذا كله غير ما أُفرد بالتصنيف من الكتب والرسائل التي لا تحصى في مسائل من القرآن وفي مُشكلِه وغريبه ومجازِه ومعانيه وضميره وشواهده وأسلوبِ نظمه والمتشابه من آياته وأمثاله وحروفه وإعرابه وأسمائه وأعلامه وناسخه ومنسوخه وأسباب نزوله، إلى كثير من مثل ذلك مما حَفِيَت فيه أقلامُ العلماء، بحيث

---

(٧٨) رينان [١٨٢٣-١٨٩٢م] فيلسوف فرنسي. له كتاب [ابن رشد والرشدية]. ولجمال الدين الأفغاني محاورة معه في باريس.

(٧٩) الشعراني، أبو محمد، عبد الوهاب بن أحمد [٨٩٨- ٩٧٣هـ ١٤٩٣-١٥٦٥م] من أعلام المتصوفة. وله آثار كثيرة أغلبها في التصوف.

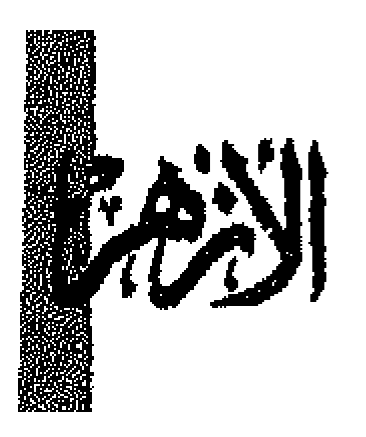
لا يعلم إلا الله وحده كم يبلغ ما وُضِع لخدمة كتابه الكريم؛ ولا يعلم الناس من ذلك إلا أنه معجزة من معجزات التاريخ العلمي في الأرض لم يتّفق له في ذلك شبيه من أول الدنيا إلى اليوم، ولن يتفق.

وقد استخرج بعض علمائنا من القرآن ما يشير إلى مستحدثات الاختراع وما يحقق بعض غوامض العلوم الطبيعية، وبسطوا كل ذلك بسطا ليس هو من غرضنا فنستقصي فيه(٨٠) على أن هذا

---

(٨٠) من ذلك طريقة التصوير الشمسي بإمساك الظل، وهي في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ (الفرقان: ٤٥)، فتأمل قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ﴾ فإن هذه الحروف تكاد تنطق بأن هذا الأمر سيكون لا محالة. ومنها كشفهم أن مادة الكون هي الأثير، والله تعالى يقول في بدء الخلق ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ (فصلت: ١١). ومنها ما حققوه من أن الأرض انفتقت من النظام الشمسي، والله تعالى يقول في السماوات والأرض: ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ (الأنبياء: ٣٠)، ومنها ثبوت أنه لولا الجبال لاضطربت دورة الأرض؛ وذلك لقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ (النحل: ١٥)، ومنها تحقيق أن كل شيء حي فهو من الماء وأن للجماد حياة قائمة بماء التبلور، وذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ (الأنبياء: ٣٠)، ومنها ما كشفوه من تلاقح النبات وأنه أزواج، والله تعالى يقول: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ (طه: ٥٣) ويقول ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ﴾ (الرعد: ٣).

والكلام في مثل هذا يطول، ولا ريب عندنا أن تحقيقه سيكون موضع كتاب الإعجاز الذي يخرجه المستقبل برهانًا للإنسانية على حقيقة دين الإنسانية فلندعه لأهله (عفا الله عنا وعنهم) وعسى أن يكون لنا من دعائهم=



ومثله إنما يكون فيه إشارةُ ولمحة ولعل متحققا بهذه العلوم الحديثة لو تدبر القرآن وأحكم النظرَ فيه وكان بحيث لا تُعْوِزُهُ أداةُ الفهم ولا يلتوي عليه أمرٌ من أمره.. لاستخرج منه إشارات كثيرة تومئ إلى حقائق العلوم وإن لم تبسط من أنبائها، وتدل عليها وإن لم تسمها بأسمائها، بلى وإن في هذه العلوم الحديثة على اختلافها لعَونا على تفسير بعض معاني القرآن والكشف عن حقائقه، وإن فيها لجِمَاما ودُرْبَةَ لمن يتعاطى ذلك؛ يُحكِمُ بها من الصواب ناحيةَ، ويُحرز من الرأي جانبا؛ وهي تَفتِق لها الذهن، وتؤاتيه بالمعرفة الصحيحة على ما يأخذ فيه، وتُخرج له البرهانَ وإن كان في طبقات الأرض، وتنزل عليه الحجة وإن كانت في طباق السماء.

ولا جَرَمَ أن هذه العلوم ستدفع بعد تمحيصها واتصال آثارها الصحيحة بالنفوس الإنسانية إلى غاية واحدة، وهي تحقيق الإسلام، وأنه الحق الذي لا مرية فيه، وأنه فِطرةُ الله التي فطر الناس عليها، وأنه لذلك هو الدين الطبيعي للإنسانية؛ وسيكون

= في الرحمة والمغفرة ما لهم من دعائنا في العون والتوفيق، إنه من تعليق المؤلف. قال مصححه: ولا يفوتني في هذا المقام أن أنبه إلى المعاني الدقيقة التي وفق إليها الدكتور عبد العزيز إسماعيل في كتابه (الإسلام والطب الحديث) وكان الرافعي من المعنيين به، كما كان عونًا له ومددًا في كثير من شواهد كتابه (أسرار الإعجاز).

العقلُ الإنساني آخر نبيّ في الأرض، لأن الذي جاء بالقرآن كان آخر الأنبياء من الناس، إذ جاءهم بهذا الدين الكامل، ولا حاجة بالكمال الإنساني لغير العقول ينبه إليه بعضها بعضا، ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض!.

وقد أشار القرآن إلى نشأة هذه العلوم وإلى تمحيصها وغايتها على ما وصفناه آنفا، وذلك قوله تعالى:﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (فصلت ٥٣)، ولو جمعتَ أنواع العلوم الإنسانية كلها ما خرجت في معانيها من قوله تعالى:﴿ فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ هذه آفاق، وهذه آفاق أخرى، فإن لم يكن هذا التعبير من الإعجاز الظاهر بداهة فليس يصح في الأفهام شيء.

ذلك وأن من أدلة إعجاز هذا الكتاب الكريم أن يخطئ الناس في بعض تفسيره على اختلاف العصور، لضعف وسائلهم العلمية ولقصَر حبالهم أن تعلقَ بأطراف السموات أو تحيط بالأرض، ثم تصيب الطبيعة نفسها في كشف معانيه؛ فكلما تقدم النظر، وجمعت العلوم، ونازعت إلى الكشف والاختراع، واستكملت آلات البحث، ظهرت حقائقه الطبيعية ناصعة حتى كأنه غاية لا يزال عقل الإنسان يَقطَعُ إليها، حتى كأن تلك الآلات حينما توجه لآيات السماء والأرض توجه لآيات القرآن أيضاً ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ



أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (يوسف ٢١).

ذلك هو الأمرُ في العلوم الأولى ثم الله ينشئ النشأة الآخرة.(٨١)

(٨١) [إعجاز القرآن] ص٨٢-٩١.

الفهـــــــرس

الإمام الشيخ الطاهر ابن عاشور: ٣
في إعجاز القرآن ٣
مبتكرات القرآن ٣٦
عادات القرآن ٤٣
العلامة الأستاذ محمد فريد وجدي: ٥٥
رد شبهات عن القرآن الكريم ٥٥
الدواعي التى تدفع لتحريف الكتب السماوية ٦٠
امتناع السبب الأول من أسباب التحريف ٦٠
امتناع السبب الثاني للتحريف ٦٢
امتناع السبب الثالث للتحريف ٦٤
امتناغ السبب الرابع لتحريف الكتب السماوية ٦٦
نسخ الأحكام ونسخ بعض الآيات ٦٧
شبهات خصوم الإسلام على القرآن ٧٠
العلامة الأستاذ مصطفى صادق الرافعي: ٩١
القرآن والعلوم ٩١

مطابع الأهرام التجارية قليوب - مصر



الأزهر

ALAZHAR

MAGAZINE

هدية مجلة الأزهر المجانية لشهر ذي الحجة ١٤٣٥ هـ

www.AlazharMag.com